بُرْدَةُ الإِمَامِ البُوصِيري:
البِنَاءُ اللُّغَوِيُّ وَالأَبْعَادُ الدَّلَالِيةُ

بشرى البداوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

ما فَتِئَتِ الْعَدِيدُ مِنَ الأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ فِي الأَدَبِ الإِسْلَامِيِّ عَلَى مَرِّ العُصورِ، وعلى تفاوتٍ فيما بينها من حيثُ التَّأثير والفَاعِلِيَة والقِيمَة الإِبْدَاعِية، تُعَبِّرُ عن مُشْتَرَكٍ إِحْسَاسِيٍّ: وَاقِعِيٍّ أو خَيَالِيٍّ تَمَثُّلِيٍّ، نحو: الفَخْر والحَمَاسة والوَصْف والغَزَل...، فهي طَالَمَا مَثَّلَتْ بذلك عُنْصُرًا من العَنَاصِرِ الأدبيَّةِ الدَّاعِمَةِ لِلتَّفاعُلِ بين مُتَلَقِّيهَا: وجدانيًّا، وفِكْرِيًّا، ومَعْرِفِيًّا، وقِيمِيًّا، بِمُوجِبِ ما تقومُ على أَسَاسِهِ مِنْ عَقْدِ الصِّلَةِ بين مُسْتَوَيَيْنِ رَئِيسَيْنِ: خَاصٍّ (ذات الشَّاعر/ المُبْدِع)، وعام (ذوات المُتلَقِّين)، ويُمْكِنُ أنْ نُمَيِّزَ في مُقَدِّمَةِ هذه الأغراض: غَرَضَ المَدِيحِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الذي يَنْهَضُ بالتَّأليفِ بين القُلوبِ العاشقةِ لِلْعِتْرَةِ الشَّرِيفَةِ.

فلا غَرْوَ فِي أَنَّهُ قد تَتَحَكَّمُ فِي تَعَارُفِ الشُّعُوبِ مَصَالِحُ دُنْيَوِيَّةٌ مَادِيَّةٌ، فما بالكُم إذا كانتِ هذه الشُّعوبُ على مِلَّةٍ واحدةٍ تَجْمَعُها وَحْدَةُ الدِّينِ والعقيدةِ، وتُوَحِّدُ بينها قَلْبًا ورُوحًا وعَقْلًا مَحَبَّةُ اللهِ -عَزَّ وجَلَّ- ومحبَّةُ المُصطفى-صلى الله عليه وسلم-، فذلك مِنْ شَأْنِهِ أن يَعْمَلَ على تَوْحِيدِهَا ولَمِّ شَتَاتِهَا الرُّوحِي، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تعالى في مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات،13]

وهنا قد تُسْتَحْضَرُ العلاقة الَّتِي ما فَتِيءَ التَّارِيخُ العربيُّ الإسلاميُّ يُصَرِّحُ بها ويُجَلِّيهَا على مَرِّ العُصور بين الغَرْبِ الإِسلاميِّ وشَرْقِهِ، بِمُوجِبِ هذا المُشْتَرَكِ المُتَمَثِّل خاصَّةً في هذا الحُبِّ الجَامِع: حُبِّ خَيْرِ البَرِيَّةِ الرَّحمةِ المهْداةِ سَيِّدِنا محمد-صلى الله عليه وسلم-؛ هذه المحبةُ الَّتِي من الوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ أَنْ يتجسَّدَ وجودُها:

- **رُوحِيًّا**: لِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران،31]؛
- **سُلوكِيًّا**: بِوُجوب اتِّباع النَّهْجِ المحَمَّدِيِّ، مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[آلعمران،132]. وقوله عَزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء،80].

فقد رُوِيَ عن أَنَس بنِ مالكٍ –رضي الله عنه–، أنَّه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم–: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ وَلَدِهِ ووالِدِه والنَّاسِ أجمعين)، وفي روايةٍ لمُسْلِمٍ: (حتَّى أكونَ أحبَّ إليه مِنْ أَهْلِهِ ومَالِهِ والنَّاسِ أجمعِينَ)[1].

ومعلومٌ أنَّ مِنْ جُمْلَةِ ما تَجَلَّتْ به هذه المحبَّةُ المحمديَّةُ ما جادَ به الشُّعراء الـمُبدعونَ من قصائدَ في"المدائح النَّبوية"، أو"قصائدِ المدِيحِ النَّبَوِيِّ"، وما نَظَمُوهُ أيضا ممَّا اصطُلح على تسميتِه بـ"البَدِيعِيات"، هذه القصائدُ الأخيرةُ الَّتي شَكَّلَتْ مِحْوَرَ اهتمامِي في رسالةِ الماستر، فَعَمِدْتُ إلى تقديمِ وتحقيقِ نموذَجٍ منها تَمَثَّلَ في شَرْحٍ مغربيٍّ لقصيدةٍ تُعَدُّ من أُمَّهاتِ قصائدِ الـمَدِيحِ النَّبَويِّ الـمَشْرِقِيِّ، هي «الكافيةُ البديعيةُ في الـمَدائحِ النَّبَوِيَّةِ» المنسوبةُ لِهَرَمٍ من أهراماتِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِي: صَفِيِّ الدِّينِ الحِلِّي(677–750هـ)، والمنظومةُ على نَهْجِ البُرْدَةِ للإمامِ البُوصِيري: موضوعًا ووزنًا وقافيةً، بل المُوَافِقَةُ لها أَيْضا في عِلَّةِ نَظْمِهَا[2]، ومَطْلِعُها:

إنْ جِئتَ سَلْعًا فَسَلْ عَنْ جِيرَةِ العَلَمِ ... واقْرِ السَّلَامَ على عُرْبٍ بِذِي سَلَمِ

وقد حَظِيَتْ هذه القصيدةُ بالعديدِ من الشُّروح، ومِنْ جُمْلَتِهَا شَرْحٌ مغربيٌّ تَوَلَّى كِبَرَهُ عالِمٌ من عُلماء الغَرْبِ الإسلامي، هو محمدُ بنُ قاسمٍ ابن زَاكُور الفاسي(ت1120هـ)، تحت عُنوان: "الصَّنيعِ البديعِ في شَرْحِ الحِلِّيَةِ ذاتِ البديعِ".[3]

هذا فَضْلًا عن أنَّ هذه القصيدة الحِلِّيَّة موضوعَ الشَّرْحِ المغربيِّ المذكورِ، تُصَنَّفُ ضِمْنَ ما اصْطُلِحَ على تَسْمِيَتِهِ بـ"البَدِيعيات"–كما سَبَقَ الذِّكْرُ؛ حيثُ يتضمَّنُ كُلُّ بَيْتٍ منها مُحسِّنا أ وأكثر من المُحسِّنات البَدِيعية، مع حِرْصِ الشَّاعرِ في مُعارضتِه "البُرْدَة" على "رِقَّةِ اللَّفظِ وسهولتِه، وقُوَّةِ المعنى وصِحَّتِهِ، وبراعةِ الـمَطْلعِ والـمَنْزَعِ، وحُسْنِ المَطْلَبِ والمَقْطَعِ".[4]– حسب ما جاء في مُقدِّمة الشَّرْحِ.

---

[1]– أخرجه البخاري في" كتاب الإيمان" "باب حب الرَّسُول صلى الله عليه وسلم من الإيمان" رقم (15)، وأخرجه مسلم في "كتاب الإيمان"، باب "وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين"، رقم (70)

[2]– نَسَجَ صفيُ الدِّين الحِلِّي على منوال الإمام البوصري في نَظْمِهِ لهذه القصيدة، ويكادُ يَجْزِمُ أغلبُ من تناول "الكافية البديعية" بالشَّرح والدِّراسة، أنَّه حاكى فيها أيضا قصة الإمام البوصيري، حيث يذكر أنه عرضت له علة طالت مدتها، وامتدت شدتها، واتفق له أن رأى في المنام رسالة من النَّبي صلى الله عليه وسلم يتقاضاه المدح، ويعده بالبرء من السقام، فنظم هذه القصيدة وجمع فيها أشتات البديع، وطرزها بمدح المصطفى الحبيب عليه أفضل وأزكى التسليم. يراجع: الحلي، شرح الكافية في محاسن البلاغة وعلوم البديع، تح: نسيب نشاوي– ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص: 19 (بتصرف).

[3]– ابن زاكور الفاسي، الصنيع البديع في شرح الحلية ذات البديع، تقديم وتحقيق بشرى البداوي– منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1/2001–2002م.

[4]– شرح الكافية، ص: 19.

وبالتَّالي، فتَلَقِّي المغاربةِ للمدائحِ النَّبوية: حِفْظًا وتذوُّقا وشَرْحًا كان يُمَثِّل مَظْهَرًا من مظاهرِ العلاقةِ الرُّوحيةِ الجامعةِ الَّتي تؤطرُها هذه العُرْوَةُ الوُثْقَى التي لا انفصامَ لها: عروةُ الدِّينِ الجامعِ بالمحبَّةِ الجامعةِ، ومنها المحبَّة المحمديَّة الَّتي تجلَّت في هذا السِّياق من خلال الإبداعَيْنِ: المشرقي والمغربي في الآن ذاتِه نَظْمًا وشَرْحًا.

فالإمامُ البوصيري مَثَّلَ مَدْخَلًا رئيسًا في هذا الباب، حيث توطَّدت من خلاله هذه العلاقةُ الأدبيةُ بين مَشْرِقِ العَالَمِ الإسلامي ومَغْرِبِهِ، فكانتْ مدائحُه ولا تزالُ خَيْرَ سفيرٍ ناطقٍ بالمحبَّةِ الجامعةِ، وأدلَّ نَمُوذَجٍ أَدَبِيٍّ مُعَبِّرٍ عن هذه العُروةِ الوُثقى الَّتي لا انفصامَ لها.

فهو شَرَفُ الدِّين أبو عبد الله مُحَمَّدُ بنُ سعيد بنِ حمادٍ بنِ محسن بنِ عبد الله بن صنهاج ابن هلال الصَّنْهاجي البُوصيري الدلاصي[5]، والعِلَّة في تعدُّدِ ألقابِه هو أنَّ:

- أولها- "**الصَّنْهاجي**": يُحيل إلى أَصْلِ أُسْرَتِهِ التي تَرْجِعُ جذورُها إلى قبيلةِ صَنْهَاجَة المغربيَّةِ؛
- ثانيها- "**الدلاصي**": هذا اللَّقَبُ ثَبَتَ له- وإنْ لم يَشْتَهِرْ به- بحُكْمِ أنَّ أَحَدَ أَبَوَيْهِ كان من إحدى قُرى صَعيدِ مصر التي تُدعى: "دلاص"، وأنَّه وُلِدَ بها؛
- ثالثها- "**البُوصيري**": بمُوجب أنَّ الآخرَ مِنْ أَبَوَيْهِ كانَ من "بوصير" إحدى قُرى مصر أيضا وبها نَشَأَ، وهو اللَّقَبُ الذي اشْتَهَرَ به.

ونستطيعُ من ثمَّ أن نستخلصَ بأنَّ الإمامَ البوصيري قد تمثَّلتْ في شَخْصِهِ اللُّحْمَةُ الجامعةُ بين الأَصْلِ المغربيِّ السَّابق (الجُدود)، والأَصْلِ المشرقيِّ/ المصريِّ اللَّاحقِ (ولادةً ونشأةً ووفاةً)، فهو مغربيُّ الأَصْلِ، دلاصيُّ المَوْلِدِ، بُوصِيرِيُّ المَنْشَأ.

وعِلَاوةً على ما سَبَقَ، فإنَّ الإمامَ البوصيري بَرَعَ في نَظْمِ الشِّعْرِ، فعُدَّتْ قصائدُه في المديح النَّبوي من النَّماذجِ الأُولى في هذا الباب، وفي مقدِّمتها: "**قصيدة البُرْدَة**" التي اعتُبر بها رائدَ المدائح النَّبوية بلا مُنازع بعد كعب بن زهير(ت26هـ) الشَّاعرِ المُخَضْرَمِ وقصيدتِه: "بانت سعاد"، فجاءت قصيدةُ البوصيري في موضوعٍ جامعٍ ألا وهو المديح النَّبوي، يُحرِّكها حُبٌّ مشتركٌ مُقدَّسٌ يُؤلِّف بين قلوب المسلمين جميعِهم في مشارق الأرض ومغاربها: حُبُّ النَّبيِّ المُصطفى خاتمِ الأنبياء والرُّسل صلواتُ الله وسلامُه عليه، فكانتِ الشُّروحُ التي حَظِيَتْ بها هذه القصيدةُ،

[5]- يرجح بأنه ولد في يوم الثلاثاء أول شوال سنة ثمان وستمائة، وأما تاريخ وفاته ففي سنة 696هـ، حيث توفي بالإسكندرية ودفن بها.
تراجع ترجمته في: الصفدي صلاح الدين (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى- دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، ج 3/ ص:88- 94 ، السيوطي جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية، دمشق، ط1/ 1967م، رقم: 67، ج1/ 570، وابن العماد الحنبلي (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمد الأرناؤوط – دارابن كثير، دمشق، ط1/ 1986م، ج7/ صص:753- 754.

فَضْلًا عن المـُعارضات والتَّخميسات وغيرها من الأبحاث والدِّراسات حولها، خَيْرَ ما يُجَلِّي حَجْمَ هذا التَّقدير، ويَكْشِفُ مِقْدَارَ هذا الاهتمام، بل ويُعْلِنُ عُمْقِ هذه المحبَّة الجامعة.

وهذا بالتَّالي ما يُحيل إلى مُسَوِّغِ التَّركيز على هذه القصيدة التي مَثَّلَتِ الإلهام بالنِّسبة لـمُجْمَلِ قصائد المديح النَّبوي: مشرقًا ومغربًا، فهي أبرزُ ما جادت به قريحةُ هذا الإمامِ العَلَمِ الرَّمْزِ، وأشهرُ ما جَرَى بذِكْرِهِ الرُّكْبَانُ في مجالِ المَدْحِ والمادِحينَ، غير أنَّنا سنُرَكِّز اهتمامَنا على جانبٍ مُعيَّن منها، ألا وهو بناؤها اللُّغوي بهَدَفِ تعرُّف دلالاتِه، واستخلاصِ أبعادِه.

فلا مراءَ في أنَّ اللُّغة مُطْلَقَ لُغَة، إذا كانت مشتركةً بمعنى "لُغَة أمة"، فهي باعتبارها الوعاءَ الحامِلَ للمعاني والجِسْرَ الـمُوصِلَ للأغراض، تغدو السَّبيلَ الأمثل للتَّواصل، وخاصَّةً إذا نُهِضَ بأدوارِها ووظائفِها الرَّئيسةِ، وفي مُقدِّمتها الوظيفة التَّبليغية، والوظيفة التَّعبيرية، والوظيفة التَّواصلية، فضلًا عن الوظيفةِ النَّفعيةِ فِيمَا يَخُصُّ نفعيتَها المتَّصِلَة بالتَّوجيهِ في جَانِبَيْ الاعتقادِ والسُّلوكِ.

ثُمَّ إنَّ اللُّغةَ سواءً تَجَلَّتْ: مُفرداتٍ أوتراكيب، نَظْمًا أو تحريرًا، فهي قد تَعْبُرُ بالمـُلْقِي لها والـمُتَلَقِّي معًا لِعَالَمِ الأفكارِ والمضامينِ والأغراضِ، بِغَضِّ النَّظَرِ عن إشكاليةِ اللَّفْظِ والمعنى وأيُّهما أَسْبَق، فتغدو بذلك رموزًا دالَّةً على فضاءاتِ الإحساسِ والشُّعُور، وإشاراتٍ لُغَوِيَّةً بليغةً إلى عوالِمِ الفِكْرِ والمعرفةِ وخاصَّةً الـمُشْتَرَكَة منها، وما لغةُ الشعر إلَّا نموذجًا دَالًّا منها، فهي قد تُوقِظ فِينَا الإحساسَ وتُجَلِّي فينَا الشُّعورَ، وقد تنقُلنا لعوالمَ فكريةٍ رَحْبَةٍ، ومجالاتٍ معرفيةٍ واسعةٍ.

هذا فَضْلًا عن أنَّ اللغةَ قد تَغْدُو ذاتَ طبيعةٍ خاصَّةٍ، إذا انتقلتْ من مجالِ التَّوظيفِ العام إلى مجالٍ خاصٍّ، فهي لا محالةَ تكتسبُ من رُوحِهِ وتَتَلَبَّسُ بخصائصِه لِتُناسبَ مقاصدَه وتُؤَدِّيَ أغراضَهُ، وبهذا فقد نُمَيِّزُ أَكْثَرَ مِنْ لُغَةٍ ضِمْنَ اللُّغةِ الواحدةِ، خاصَّةً إذا أَخَذْنَا بِعَيْنِ الاعتبارِ الجانبَ الاصطلاحيَّ التَّداوليَّ الاستعماليَّ الوَضْعِيَّ للُّغة، حيث قد تبرزُ على سبيلِ المثالِ: لغةُ القرآنِ الكريمِ باعتبارها الأَصْل، ولغةُ الحديث النَّبويِّ الشَّريفِ باعتبارها المَرْجِعَ المُرَسِّخَ للُغة الأصل، ولغةُ الشِّعْر باعتبارها صورة من صُوَرِ تَجَلِّي تصريفِ اللُّغة بإبداعٍ بشريٍّ من جانبِ النَّظْمِ، ولغةُ الأمثالِ باعتبارها تصريفًا للُّغة في جانبي الحِكَمِ والعِبَرِ المـُستخلَصة بلُغَةِ النَّثْرِ، ولغةُ الأدب عامَّةً وأصلُها إحساسٌ وشعورٌ مُرْهَف...، وغيرها من مجالات التَّوظيف التي تَكتسب بمُوجبها اللُّغةُ طابعًا خاصًّا، وتتلبَّس بخصائصَ يُصْبِحُ من الأجدى الإحاطة بها حتَّى لا يُجافينا مَنْطِقُ الصَّوابِ في فَهْمِ منطوقِها، واستيعابِ معانيها، وتَمَثُّلِ دلالاتِها، وتعرُّف أغراضِها.

ورغبةً في مقاربةِ هذا المستوى الخَاصِّ لِلُغَةِ، وفي سِيَاقِ إجراءِ قراءةٍ لُغَوِيَّةٍ دلالية لقصيدةِ البُرْدَةِ للإمامِ البُوصيري، باعتبارِها نموذجًا دَالًّا على "اللُّغةِ الشِّعرية"، وفي إطارِ غَرَضٍ خَاصٍّ هو الـمَديحُ النَّبوي المـُعَبَّرُ من خلالِه عن الأحاسيسِ الجامعةِ للأُمَّةِ الإسلاميةِ، نفتتحُ بمهادٍ خَاصٍّ للتَّعريف بهذه القصيدةِ الَّتي اخْتُلِفَ في تحديدِ عَدَدِ أبياتها،

غيرَ أنَّ مُعْظَمَ الأقوالِ اتَّفقتْ على مائة وستين بيتًا. وممَّا يَشْهَدُ على ذلك قَوْلُ بعضِهم في ختامِ أبياتٍ وَرَدَتْ في بَعْضِ النُّسَخِ:

أبياتُها قد أَتَتْ سِتِّينَ مع مائة   فَرِّجْ بها كَرْبَنَا يا واسعَ الكَرَمِ[6]

كما أنه اختُلف أيضًا في تسميةِ هذه القصيدة، غيرَ أنَّ أشهرَ مُسَمَّياتها ثلاثةُ أسماءٍ سائرةٍ، وهي:

1- "البُرْدَة": وهي أشهرُ أسمائها لِمَا رآهُ الشَّاعِرُ في مَنَامِهِ بعد نَظْمِهِ لها مِنْ إلقاءِ الرَّسُول-صلى الله عليه وسلم- عليه بُرْدَتَهُ؛

2- "البُرْأَة": خاصَّة وأنَّه نَظَمَهَا تَوَسُّلًا بها إلى الله تعالى بِقَصْدِ البُرْءِ من داءِ الفالجِ الذي أَصَابَهُ فَأَبْطَلَ نِصْفَهُ وعَجْزِ الأطباء عن مُعالجته، فبرأ بها، ومِمَّا نُقِلَ عنه في ذلك قوله:

(كنتُ قد نظمتُ قصائدًا في مَدْحِ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، منها ما كان اقترحَه على الصاحبُ زينُ الدِّين يعقوب بن الزبير، ثم اتَّفق بعد ذلك أنْ أصابَني فالجٌ أَبْطَلَ نِصْفِي، ففكَّرتُ في عَمَلِ قصيدتي هذه البردة، فعملتُها واستشفعتُ به إلى الله تعالى في أنْ يُعافِيَني، وكرَّرتُ إنشادَها، وبكيتُ، ودعوتُ، وتوسَّلتُ، ونِمْتُ فرأيتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم-، فمَسَحَ على وَجْهِي بِيَدِهِ المباركةِ، وأَلْقَى عَلَيَّ بُرْدَةً، فانتبهتُ ووجدتُ فيَّ نهضةً...)[7]؛

3- "الكواكبُ الدُّرِّيَّة في مَدْحِ خَيْرِ البَرِيَّة": الذي قد يُعْتَقَدُ بأنَّهُ العُنوانَ الأصليَّ لِهذه المِيمِيَّةِ البوصيرية، فهو العنوانُ القائمُ على الأسلوبِ البَدِيعيِّ المَسْجُوعِ، والذي استُخْلِصَ تَمَيُّزُهُ بتأديته لثلاث وظائفَ لسانيةٍ:

- الوظيفةِ المرْجِعِيَّة: باعتباره رَكَّزَ في أَحَدِ شِقَّيْهِ على الموضوعِ المقصودِ بالرِّسالة، وهو الرَّسولُ -صلى الله عليه وسلم-، فَعَبَّرَ عنه بـ"خَيْرِ البَرِيَّةِ"؛

- الوظيفة الشِّعْرِية: باعتبارِ الصِّياغةِ الشِّعْرِيةِ للعُنوانِ، وتركيزه على جِنْسِ الرِّسَالةِ، وهي هنا شَكْلٌ أَدَبِيٌّ اسْمُهُ: "المدِيح"؛

- الوظيفـة التَّعْبيريـة: وهي التي تَعْكِسُ لحظةَ الانفراجِ والإشراقِ لـدى الشَّاعرِ أمامَ موضوعِه؛ إذ استحضار صورةِ الكواكبِ الدُّرِّيَةِ، معناهُ أنَّ الشاعرَ يعيشُ ليلًا دامسًا، ومديحُ خَيْرِ البَرِيَّةِ قد جَعَلَ هذا السَّدِيمَ يَتَبَدَّدُ بكواكبَ دُرِّيَةٍ لَشَدَّ ما كان الشَّاعرُ في شوقٍ إليها.[8]

6- الباجوري إبراهيم، حاشية الباجوري على متن البردة، مراجعة عزيز إيغزير- دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1433/ 2012م. ص:79.

7 - شُبَّر جواد، أدب الطَّفّ- دار المرتضى، بيروت- لبنان، 1988م، ج4/ صص: 126-127

8- مصباح محمد فتح الله، بردة البوصيري وأثرها في الأدب العربي القديم- دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 2011م، ص: 128.

ومع ذلك، فقد اشتهرتْ هذه القصيدةُ المِيمِيَّةُ للإمام البوصيري وذاعَ صيتُها باسم: "البُرْدَة"، والغالبُ أنه تَيَمُّنًا ببُردة المصطفى-صلى الله عليه وسلم- المذكورةِ في عِلَّةِ نَظْمِها، وَوَصْلًا أيضا بِبُرْدة الشَّاعر كعب بن زهير التي كَسَاهُ بها الرَّسولُ -صلى الله عليه وسلم- إِثْرَ مَدْحِهِ له بقصيدتهِ اللاَّمية: "بانتْ سُعاد" الَّتي كانت سَبَبًا في خَلاصِ نَاظِمِهَا من إهْدَارِ دَمِهِ، فوُسِمَتْ مُذْ ذلك الحين بـ"قصيدة البردة" لكعب بن زهير.

وقد حظيتْ قصيدةُ البُرْدة للإمام البوصيري بشروحٍ مغربيةٍ، هذه الشُّروحُ التي مثَّلَتْ مِحْوَرَ اهتمامِ العديدِ من الباحثين المغاربة، فأَوْلَوْا عِنَايةً خاصَّةً للبَحْثِ عنها والتَّعريفِ بها وبأَصحابِها، وفي مُقَدِّمتهم شيخُ المُحقِّقين المغاربةِ الأستاذُ محمد بن عبد الهادي المنُّوني-رحمه الله تعالى- (ت1999م)، حيثُ اجتهدَ في التَّعريف بالشُّروحِ المغربيةِ للبُرْدَةِ، فعرَّف تِسْعًا منها وأغلبُها يَرْجِعُ إلى عهد السُّلطان أبي عنان المَرِيني، و ذَكَرَ ما قد يقومُ اعتقاده -إذا تأَكَّدَ- بأنَّ أوَّلَ شَرْحٍ للبردة في المغرب هو شَرْحُ ابنِ أبي يَحْيَى، وهو الفقيهُ المغربيُّ أبو سالمٍ إبراهيمُ بنُ عبدِ الرَّحمن بنِ أبي بكر التَّسولي التَّازي، المُتَوَفَّى بعد عام 784هـ، ثُمَّ أَعْقَبَ التَّعريفَ بهذه الشُّروح، تَهُمُّ: تشطيرَها، وتَسْمِيطَها، وتَخْمِيسَها. يقول عَقِبَ عنوانه: "أوضاع على قصيدة البردة البوصيرية":

(والمعنِيُّ بالأَمْرِ هنا ما قام به بعضُ الأدباءِ المغاربةِ- بين أصليينَ ومُستوطنين- من تَذْيِيلٍ أو شَرْحٍ على هذه القصيدة، مِمَّا بَلَغَ مجموعُه اثْنَيْ عَشَرَ موضوعًا...)[9].

ومعلومٌ أنَّ البُرْدَةَ نُظمتْ على الوزنِ البسيطِ، وهو البَحْرُ المُزدوجِ التَّفْعيلة الذي حُدَّ بالبيت الشعري:

إِنَّ الْبَسِيطَ لَدَيهِ يُبْسَطُ الأَملُ   مُسْتَفْعِلُنْ فَاْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُ

هذا البَحْرُ الشِّعْريُّ الذي عُرِفَ بانْبِسَاطِ مَقَاطِعِهِ وكذا انْبِسَاطِ حَرَكَاتِهِ في عَرُوضِهِ وضَرْبِهِ، فَوَافَقَ ذلك طبيعةَ الغَرَضِ الشِّعْري. يقول حازِمِ القَرْطَاجَنِّي(ت684هـ) في مِنْهَاجِهِ مُؤَكِّدًا العلاقةَ بين البحر الشِّعريِّ والغرض:

(مَنْ تَتَبَّعَ كلامَ الشُّعراء في جميع الأعاريض، وَجَدَ الكلامَ الواقعَ فيها تَخْتَلِفُ أنماطُه بحسب اختلاف مجاريها من الأوزان، ووَجَدَ الافتنانَ في بعضِهما أَعَمَّ من بعض، فأعلاها درجةً في ذلك الطَّويل والبسيط،... ونجد للبسيط بساطة وطلاوة)[10].

9- لمزيد من التَّفصيل، يراجع: المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين- منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم: 20، ط3/ 2000م، الفصل الأول: المولد النبوي الشريف في المغرب المريني، أوضاع على قصيدة البردة البوصيرية، ص:533، والمنوني، ملامح ودواوين في السيرة والمديح النبوي- مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عدد: 9-10، سنة 1966م، وابن الأحرش سعيد، شروح بردة البوصيري بالمغرب والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين: تاريخها- أنواعها- مذاهبها- أطروحة دكتوراه الدولة نوقشت بكلية الآداب بتطوان، سنة 1996م، وابن الأحرش، جهود المنوني في التَّعْريف ببردة البوصيري وشروحها في العدوتين: الإفريقية والأندلسية- مجلة دعوة الحق، المغرب، عدد:370.

وتُوَزَّعُ قصيدة البُرْدَة غالبًا إلى فصول عشرة، غير أنَّه يُمكن تمييز الفصول الآتية فيها بإضافة فصل آخَرَ مراعاةً لِمُفْتَتَحِ الوُلوج لموضوع المَدْحِ على نَحْوٍ غيرِ مباشر (الفصل الثالث)، والخلوص إليه بشكل مباشر (الفصل الرابع)، فتغدو فصول القصيدة مُوَزَّعَةً كالآتي:

- الفصل الأول: في الغَزَلِ وشَكْوَى الغَرامِ؛
- الفصل الثاني: في التَّحْذِيرِ مِنْ هَوَى النَّفْسِ وأَثَرِهِ؛
- الفصل الثالث: في مَدْحِ نَهْجِ النَّبِي–صلى الله عليه وسلم– في الدَّعْوَة ووجوب اتِّباعه؛
- الفصل الرابع: في مَدْحِ النَّبِي بالأفضلية والخَيْرِيَّةِ بالتَّبْليغ والشَّفاعة وغيرها؛
- الفصل الخامس: في مَوْلِدِهِ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم؛
- الفصل السادس: في مُعجزاتِه عليه الصَّلاة والسَّلام؛
- الفصل السابع: في شَرَفِ القرآنِ الكريمِ ومَدْحِهِ؛
- الفصل الثامن: في إسراءِ الرَّسُولِ–صلى الله عليه وسلم– ومِعْرَاجِهِ؛
- الفصل التاسع: في جهادِ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–؛
- الفصل العاشر: في التوسُّلِ بالنَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–؛
- الفصل الحادي عشر: في المُناجاةِ وعَرْضِ الحاجاتِ.

وقد استُهلَّت القصيدةُ بقَوْلِ النَّاظِمِ:

أَمِـنْ تَذَكُّــرِ جِيــرانٍ بِذِي سَلَـمِ   مَزَجْــتَ دَمْعًــا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ[11]

وخُتِمَتْ بقَوْلِهِ:

ما رَنَّحَتْ عذباتِ البانِ ريحُ صَبًا   وأَطْرَبَ العِيسَ حادِي العِيسِ بالنَّغَمِ

وسنُقصر القَوْلَ على فَصْلَيْنِ اثنينِ فحسب من القصيدة، نتَّخذُهما نموذجًا نُقارب من خلالهما البناءَ اللُّغَوِيَّ للقصيدةِ وما يَحْمِلُهُ من دلالاتٍ، ويَنُصُّ عليه من معانٍ ساميةٍ، ويُحِيلُ إليه بالتَّالي من أبعادَ معرفيةٍ، وهي:

---

[10]– القرطاجني حازم، مِنْهاج البُلَغاء وسِرَاج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة– دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ط2/ 1981م، صص: 268-269.

[11]– وهذا هو مطلعُ هذه القصيدة التي تُنعتُ بـ"القصيدة الشَّريفة" أو "القصيدة المباركة"، عِلْمًا بأنها قد تُستهلُّ أحيانا ببيت أساسُه حَمْدٌ، وهو:

الحَمْدُ لله مُنْشِي الخَلْقِ من عَدَمِ   ثُمَّ الصلواتُ على المختار في القِدَمِ

أولا– الفصل الأول: وتُمَثِّلُهُ الأبياتُ التي افتتحَ بها الإمامُ البوصيري بُرْدَتَهُ أوبُرأته، مما يَتَّصِلُ بالغَزَلِ وشَكْوَى الغَرام، وذلك من مطلَعِ القصيدة إلى قولِه:

إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي   وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

ثانيا– الفصل الرَّابع: وهي الأبيات التي تتعلَّق بمَدْحِ الرَّسُول المصطفى–صلى الله عليه وسلم– من حيث الاصطفاءُ، وأمانةُ التَّبليغِ، ومِنَّة الشَّفاعة... ونحوها، أوَّلُها قول الشَّاعر:

مُحَمَّدٌ سَيِّـدُ الْكوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـنِ   خَيْرُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

وآخرُها قوله:

لاَ طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ   طُـوبَى لِمُنْتَشِـقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِـمِ

فبالرُّجوع إلى ما افْتُتِحَتْ به القصيدةُ من ذِكْرٍ للغَزَلِ وشَكْوَى الغَرَامِ أوما يُصْطَلَحُ عليه أيضًا بـ"النَّسِيب"، نَجِدُ أَوَّلَ ما يُطالِعُنَا أسلوبُ الاستفهام، والمستفهِمَ فيه من جرَّده الشَّاعرُ من نَفْسِهِ وجَعَلَهُ دَالًّا عليه وعلى حالِه بنحوٍ غيرِ مباشرٍ، فكأنَّنا به يقول:

(أَمِنْ تَذَكُّرِكَ جيرانَك بِذِي سَلَمٍ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى من مُقْلَتِكَ بِدَمٍ...الأبيات).

والحقُّ أنَّ المقصودَ هو الشَّاعرُ نفسُه، سواء أحالَ بذلك إلى واقعِ معيشٍ سابقًا أو دَلَّ على مُتَخَيَّلٍ مجَازِيٍّ فحسب، جَرْيًا على ما دَرَجَ عليه الشعراءُ من افتتاحِ قصائدِهم بالوقوف على الأطلال وتَذَكُّرِ الأَحِبَّة، وذِكْرِ الشَّوْقِ لهم والاشتياق بمتعلّقاته وأحوالِه وآثارِه.

ونَسوقُ في هذا المقَامِ فائدةً لُغَوِيَّةً مُتَعَلِّقَةً بالكلمةِ المِحْوَرِيَّة التي قامَ عليها هذا الاستهلالُ:"تَذَكُّر"، فالرُّجُوعُ إلى أَصْلِ اشتِقَاقِها وما سِيقَ في ضَبْطِ مَعْنَاها، يُفِيدُ في تَدَبُّرِ المَقْصِدِ من تَوْظيفِها ويُسَاهِمُ في إِدْرَاكِ هذا المَعْنَى؛ حيثُ يُنَصُّ على أنَّ "التَّذَكُّرُ" مَأْخُوذٌ من "الذُّكْرِ"، بالضم وهو ما يَكُونُ بالقَلْبِ، وهو ما مِنْ شَأْنِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ لَهِيبَ الغَرَامِ إِضْرَامًا، وأَنْ يُضْفِيَ على لَوْعَةِ الشَّوْقِ والاشتياقِ تَوَهُّجًا.

أمَّا المحاورُ الرَّئيسةُ التي انْبَنَى عليها هذا الفصلُ، والتي قامتْ على أساس مقابلاتٍ: انسجامًا وتكملةً أو ضِدًّا ومفارقةً عمومًا، هي كالآتي:

- تَذَكُّرُ الجيرانِ أوالأَحِبَّة وواقع الحال؛
- التمثُّلات: هبوبُ الرِّيح ووَمْض/ وَمِيض البَرْق؛

- التَّأثير: العَيْنُ عِوَضَ الكَفِّ تَأْبَى إلَّا صَبَّ الدُّموع، والقلب بَدَلَ الاستفاقة يَهيمُ؛
- الأثر: حُبُّ الصَّبِّ بين مُنسجِم ومُضطرِمِ؛
- التَّأثير: إراقةُ الدَّمع على الطَّلَلِ، والأَرَق لِذِكْرِ البَانِ والعَلَمِ؛
- الأثر: إنكارُ الحُبِّ وشهودُ عُدُولِ الدَّمْعِ والسَّقَمِ؛
- التَّأثير: الوَجْدُ وإثباتُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى؛
- الأثر: سَرَيَانُ الطَّيْفِ والأرق، واعتراضُ الحُبِّ اللَّذاتِ بالأَ لَمِ؛
- التَّأثير: اللَّوْمُ وطَلَبُ إيجادِ العُذْرِ لِعَدَمِ الانتصاح في مواجهة الاتِّهام.

فجَمَعَ الشَّاعِرُ بين تمثُّلات الإحساسِ والشُّعورِ على مستوى الواقع الـمُعايَن أوالمُتخيَّل من خارج الذَّات (الدَّمْع الجاري من الـمُقلة بالدم/ هبوب الرِّيح من تلقاء كاظمة/ وَمْض البرق في الظَّلماء...)، وتجلِّيات الأثَرِ في واقع الحال من عُمْقِ الذَّات (صَبُّ العَيْنِ الدَّمْعَ / هَيَمانُ القَلْبِ/ الأَرَق/ سَرَيَانُ طَيْفِ المحِبِّ...)...

وتخلَّل أغلبَ السِّياقاتِ السَّابقةِ أسلوبُ الاستفهامِ التَّقريريِّ الذي يَقُومُ بغَرَضِ:

- **الإثْبَات** فحسب: (أمن تذكر جيران.../ أم هبت الريح.../ أيحسَب الصب أن الحب منكتم...؛

- **الإثْبَات مع التَّوْبِيخ**: (فكيف تُنْكِرُ حُبًّا).

وما بين إنشاءٍ وخَبَرٍ قامتِ الأغراضُ في هذا الجزء الاستهلالي من القصيدة، لتجعلَنا نعيشُ سجالًا يقوم بين الشَّاعِرِ عن طريقِ من يُمَثِّلُهُ ممَّن جَرَّدَهُ من نفسِهِ، والشَّخصِ اللَّائمِ له (يا لائمي في الهوى العذري معذرة.../ محَّضْتَني النُّصحَ...)، وهو لايعدو كَوْنَهُ الشَّيْب، وهُوَ هو:

فأمَّا **الشَّـاعِرُ** فيعيشُ حالةَ استحضارٍ وتذكُّرٍ للأحبابِ، ويجعلُنا نشاركُه إحساسَه ممَّا يَعْتَمِلُ في داخلِه، أو ما يتجلَّى في الظَّاهِرِ عمومًا: الماديِّ والنَّفْسِيِّ على حد سواء، و أمَّا **اللَّائمُ** فيأْبَى إلَّا أنْ لا يَعْتَرِفَ بواقعِ الحالِ كواقعٍ محتومٍ، ويتَّخذُ النُّصْحَ سببًا لإعادة التَّوجيهِ لمنحى غيرِ منحى الشَّاعر، ممَّا يجعلُ الشَّاعِرَ يُعْلِنُ امتناعَه عن الاعتراف بجدواه جهارًا، غير أنَّ المعْترض اللَّائم/ النَّاصِحَ ممَّا يُدَلُّ عليه بـ"نَصيح الشَّيْب" لا يَخْرُجُ عن ذاتِ الشَّاعر، فما بين مَنْ جَرَّدَهُ الشَّاعرُ مِنْ نَفْسِهِ وأَحالَ إليه بضمير المخاطَب، وبين مَنْ يمَثِّلُهُ أيضا وهو شَيْبُهُ، يخوضُ القارئُ تجربةَ الحنين وشكوى الغرام في مَدْخَلِ البُردةِ بمُختلِف تفاصيلها: لوعةً واشتياقًا، واستحضارًا وتأثرًا، وحالًا وشهودًا وأرقًا، وحبًّا وألمًا، وعدولًا ووشاةً، ونُصْحًا وامتناعًا؛ بعَدَمَ انتصاحٍ.

وبمراجعةٍ متفحِّصة لمفرداتِ البِنَاءِ اللُّغَوِيِّ الذي قامتْ عليه هذه المعاني السَّابقة الذِّكْرِ، نلاحظُ بأنَّها توزَّعتْ بين:

- أسماء في صيغة:
  - مصادر: نحو: (تذكُّر المأخوذ من الذُّكْرِ/ ذِكْر/ صَمَم/ حُبّ...)؛
  - أسماء مكان: (ذي سَلَم: بين مكَّة والمدينة) / كاظِمَة/ إِضَم/ البَان والعَلَم: موضعان بالحجاز؛
  - أسماء فاعل: لائم/ نصيح...؛
  - أسماء مفعول: مستتر/ منحسم/ المحب...؛
  - أسماء ضمائر: متَّصلة بالاسم (نحو: لعينيك/ لقلبك/ خطي/ خديك/ حالي/ سري/ دائي...)، وبالفعل (نحو: مزجت/ هبت/ قلت/ اكففا/ همتا...)، وبالحرف (نحو: منه/ به/ عليك/ إليك...)؛
  - أسماء استفهام: كيف (فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت...)، وما (فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم)؛
  - اسم موصول: من (نعم سرى طيف من أهوى فأرقني...)؛
  - اسم منادى: (يا لائمي في الهوى العذري معذرة...)؛
  - أسماء تدل على الظرفية: بين/ بعد؛
  - أسماء مفردة: (مقلة/ دم/ الريح/ البرق...)؛
  - أسماء بصيغة المثنى: عينيك/ خطي/ خديك؛
  - أسماء بصيغة الجمع: جيران/ عدول/ اللذات/ الوشاة/ العذال...؛
  - أسماء معارف: مُعَرَّفَة بأداة التعريف (الريح/ البرق/ الظلماء...:)، ومُعَرَّفَة بالإضافة (تذكر جيران/ قلبك/ لذكر البان/ حالِيَ...)، واسم علم على المكان (ذي سلم)، وأسماء ضمائر: نحو التاء المتحركة (مزجت/ قلت/ أرقت/ لست...) وضمائر مستترة: (استفق (أنت)/ يهم (هو)...)؛
  - أسماء نكرة: نحو: جيران/ دمعا/ مقلة/ إضم/ حبا...؛
  - أسماء صحيحة: (نحو: سلم/ دمع/ مقلة/ دم/ الصب...)، وأسماء معتلة (نحو: الهوى/ البان/ وجد/ ضنى...)؛
  - أسماء مجرورة: بالحرف (بذي سلم/ من مقلة/ بدم...)، وبالإضافة (تذكر جيران/ تلقاء كاظمة/ عينيك...)، وبالتبعية (لذكر البان والعلم/ عدول الدمع والسقم...)...
- أفعال: وتعدادها ستة وعشرون فعلا، وهي: (مزجتَ/ جرى/ هبَّت/ أومضَ/ قُلْتَ/ اكففُا/ هَمَتَا/ قلت/ استفقْ/ يَهِمِ/ يحسبُ/ تُرِقْ/ أَرِقْتَ/ تُنْكِرُ/ شَهِدَتْ/ أثبتَ/ سَرَى/ أَرَّقني/ يَعْتَرِضُ/ أنصفتَ/ تَلُمِ/ عَدَتْكَ/ مَحَّضتني/ لست/ أسمعُهُ/ اتَّهَمْتُ).

فتَمَثَّلَتْ بـ:

1- **أفعال اتَّصل بها ضميرٌ:**

- **ظاهر أومُسْتَتِر: الظَّاهر**، نحو: (مزجتَ-التاء المتحركة ضمير الفاعل/ هبت- تاء التأنيث الساكنة لا محل لها من الإعراب/ قلت- التاء المتحركة ضمير الفاعل/ اكففا- ألف الإثنين ضمير الفاعل...)، و**المستتر**، نحو: (جرى- الفاعل ضمير مستتر تقديره: هو/ يهم- الفاعل ضمير مستتر تقديره:هو...)؛
- ضمير **له محل من الإعراب** (تاء الفاعل: مزجت/ قلت/ أرقت/ أثبت/ أنصفت/ محضتني/ لست/ اتهمت)/ (ألف الاثنين: اكففا/ همتا)؛
- **وضمير لا محلَّ له من الإعراب** (تاء التأنيث الساكنة: هبت/ شهدت)؛
- **ضمير رفع متصل** (ضمير الفاعل مما سبق ذكره)، أو **ضمير نصب متصل** (أرقني/ عدتك/ محضتني/ أسمعه)؛

2- **أفعال لازمة:** (نحو: جرى/ جرى من مقلة...)، **وأفعال متعدية** (مزجت/ مزجت دَمْعًا...)؛

3- **أفعال صحيحة:** (نحو: مزجت/ مَزَجَ...)، **وأفعال معتلة** (نحو: جرى/ سرى...)؛

وأفعال مبنية: (نحو: مزجت/ جرى/ أومض/ قلت/ اسْتَفِقْ...)، **وأفعال معربة** (يهم/ يحسب/ تُنْكِرُ...)؛

- **فعل ناقص:** (ليس)، و **أفعال تامة:** (باقي الأفعال).

- **وحروف معان:** توزعت بين:

- **حرف استفهام:** الهمزة(أ) في موضعين: (أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ.../ أيحسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ...)؛
- **حروف الجر: الباء**(بذي سلم- بالألم)/ **من** (من مقلة- من تلقاء- من إضم- منه- مني)/ **الباء**(بدم- به- بمستتر- بمنحسم)/ **اللام** (لعينيك- لقلبك- لِذِكْرِ)/ **على** (على طلل- عليك- على حديك)/ **في** (في الظلماء- في الهوى- في صمم- في عذل- في نصح)/ **إلى** (إليك)/ **عن** (عن الوشاة- عن العذال- عن التُّهَمِ)؛
- **حروف العطف: أَمْ** : حرف للمعادلة بعد همزة الاستفهام المطلوب بعدها تعين أحد الشيئين (أم هبت الريح من تلقاء كاظمة...) الواو (**و**) (وأومض البرق- وما لقلبك- ومضطرم- ولا أَرِقْتَ- والعَلَمِ- والسَّقَمِ...)، **الفاء**: (فَأَرَّقَنِي)؛
- **حروف النَّصب: إنَّ** الحرف المُشَبَّه بالفعل، نحو: (إن المحِبَّ- إني اتَّهَمْتُ)/ **أنَّ** (أنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ)؛
- **حرف جواب: نعم** (نعم سَرَى طَيْفُ من أهوى)؛
- **حرف امتناع لامتناع: لولا** (لولا الهوى)؛
- **حرف جزم: لم** (لم ترق دمعا- لم تلم)؛
- **موصول حرفي: ما** (فكيف تُنْكِرُ حُبًّا بعد ما شَهِدَتْ...)؛

- **حروف شرط**: **جازمة**، نحو: **إنْ** (إنْ قُلْتَ اكفُفا همتا)، **وغير جازمة**: **لو**، وهو حرف الشرط غير الجازم أو حرف امتناع لامتناع (ولو أنصفتَ لم تَلُمِ)؛
- **حرف استئناف**: **الواو** (ولو أنصفت)؛
- **حرف نداء**: **يا** (يا لائمي)؛
- **لا النَّافية للجنس**: التي تعمل عَمَلَ ليس (لا سِرِّي بمُسْتَتِرٍ...ولا دائي بمُنْحَسِمِ)؛
- **حرف استدراك** (محَّضْتَني النُّصْحَ لكنْ لستُ أسمعُه)؛
- **الفاء الفصيحة** (فما لعينيك- فكيف تُنْكِرُ حُبًّا)؛
- **الواو الحالية** (**و**): (والشَّيْب أبْعَدُ في نُصْحِ).

فعناصرُ البناء اللُّغوي تنوَّعت لِتَدُلَّ على المعاني المقصودة ممَّا يتَّصل بشَكْوَى الغرام، فتراوحت الأساليبُ بين: استفهامٍ، واستفسارٍ، ونفيٍ، واستنكارٍ، واستئنافٍ، واستدراكٍ، وشَرْطٍ، وتحقيقٍ، وتوصيفٍ للحالِ، لِيُشَكِّلَ ذلك مدخلًا للتَّحذير من هوى النَّفس، فيخلُص منه للمديح.

وفي غُضُونِ هذا المَدْخَلِ المُفْعَمِ بالمشاعرِ والأحاسيسِ، تَتَخلَّلُ التَّعبيرَ جملةٌ من الصُّوَرِ البيانيةِ:

أولها- الكِناية عن صِفَةٍ: وهي الصُّورةُ البيانيةُ التي أَسْعَفَتِ الشَّاعرَ في وَصْفِ حالةِ البُكاءِ؛ فهو يَمْزِجُ الدَّمْعَ بالدَّمِ كنايةً عن كثرة ذَرْفِهِ للدُّموعِ، ووصفًا لحالِ إجهاشِهِ بالبكاءِ بتَذَكُّرِهِ للأحبَّةِ؛

ثانيها- الاستعارة التَّصريحية: التي قامت في أربعة مواضع:

أ- تشبيه شِدَّةِ خفقانِ القلب المُتَحَسِّرِ على الفراقِ الطَّويلِ باضطرامِ النَّارِ، بجامعِ الاضطرابِ في كُلٍّ منهما؛

ب- تشبيهِ الدَّلالة الواضحة على عِشْقِهِ بالشَّهادة بجامعِ الوُضوحِ في كُلٍّ منهما، فاشْتُقَّ من الشَّهادةِ بمعنى الدَّلالة: (شَهِدَتْ)؛

ج- تشبيهِ انكتامَ السِّرِّ بالاستتارِ بجامعِ الخَفاءِ في كُلٍّ، ثم اشتُقَّ من الاستتارِ بمعنى الانكتام: (مُسْتَتِرٍ)؛ بمعنى: مُنْكتِمٍ، فجاءتِ الاستعارةُ تصريحيَّةً تَبَعِيَّةً؛

د- وفي قوله: (لستُ أسمعُه)؛ حيث شَبَّهَ عدم القَبول بعدم السَّماعِ بجامعِ عَدَمِ الاستجابةِ في كُلٍّ، ثم اشتُقَّ من السَّماعِ بمعنى القَبول: (أَسْمَعُهُ)، فهي استعارةٌ تصريحيةٌ تبعيةٌ أيضا؛

هـ- وفي تشبيهِ الشَّيْب بالضَّيْف، وحذفِه المُشَبَّهَ: (الشَّيْب) وتصريحِه بالمُشَبَّهِ به: (الضَّيْف)، فتجلَّى استعارةً تصريحيةً.

ثالثها- الاسْتِعَارَةُ المَكْنِيَّة: في موضعَيْنِ اثنينِ في المَدْخَلِ الغَزَلِيِّ، ومُفْتَتَحِ ما جاء في التَّحذيرِ من هَوَى النَّفْسِ:

أ- قوله: (نَصيح الشَّيْب)، حيث شَبَّهَ الشَّيْب بإنسانٍ يَنصح بجامع الإنذار في كل، وحذف المشبَّه به وَكَنَّى عنه بشيءٍ من لوازمه وهو النُّصْح، فالاستعارة مكنية؛

ب- وقوله: (نَذير الشَّيْب والهرم)؛ فشبَّه الشَّيْبَ والهَرَمَ بإنسانٍ يُنْذِرُ ويُحَذِّرُ، بجامعِ التَّحذير في كل، ثم حَذَفَ المشَبَّهَ به وكَنَّى عنه بشيءٍ من لوازمِهِ وهو الإنذارُ، فالاستعارةُ مَكْنِيَّةٌ.

رابعها- المـَجَازُ العَقْلِيُّ: الذي أحالَ إليه قولُه: (أَثْبَتَ الوَجْدُ)، بحُكْمِ أنَّ إسنادَ الإثباتِ إلى الوَجْدِ غيرُ حقيقي، وهو من إسنادِ الفعلِ إلى سَبَبِهِ؛

خامسها- تشبيهٌ مُرْسَلٌ مُجْمَلٌ: تجلَّى في قولِه: (خَطَّيْ عَبْرَةٍ)؛ حيثُ شَبَّهَ العَبْرَةَ بالعَنَمِ، وحَذَفَ وَجْهَ الشَّبَهِ وهو الحُمْرَة، وشَبَّهَ الضَّنَى الظَّاهِرَ على الوَجْهِ بالبَهارِ، وحَذَفَ وَجْهَ الشَّبَهِ وهو الصُّفْرَة، مع ذِكْرِ أداةِ التَّشْبِيهِ: "مثل".

فمن خلالِ هذه الصُّور البيانية استطاعَ الشَّاعرُ أنْ يُحيلَنا إلى طبيعةِ الإنسانِ، وخاصَّة ما يتَّصل منها بالجانب العاطفي، وكيف أنَّ الفراقَ يُذْكِي هذه المحبة ولو بعد حينٍ، فالأرضُ تَدُلُ عليهم وتَحْمِلُ المـُحِبَّ المُنقطعَ عنهم لاستحضارِ ذِكراهُم، فما بالُكَ إذا كانتْ من الأرضِ الطَّيِّبَةِ حيث تلوحُ نسائمُ المحبَّة الواجبة: محبةِ المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، هذه اللَّحظات التي تحملُك فتُخرِسُ اللِّسانَ لتُصبحَ العَيْنُ خَيْرَ مُعَبِّرٍ عن الوِجْدَانِ: دموعًا تُجَلِّي الإحساسَ وتَكْشِفُ للعيانِ ما جُوهِدَ لِسَتْرِهِ مِنْ قِبَلِ المـُحِبِّ الولهانِ. وما بين التَّذَكُّرِ والواقع، مابين الافتقاد والحُضور، مابين الشَّوق للماض والغربة المكتسِحة للواقع يُعاش الاضطراب، وتتزاحمُ الصُّوَرُ، ويُملأُ القلبُ شجنًا فتفيضُ العينُ دَمْعًا.

هو عشقٌ وشهادةٌ: عِشقٌ لِمَا عِيشَ واقعًا وافتُقد أوا فُتِقرَ لِعَيْشِهِ فافتُقِدَ أيضا، وما بين افتقادٍ أو افتقارٍ تَضطرمُ نارُ العِشْقِ بمُوجِبِهِ فيَغْدُو الحُبُّ غيرَ مُنْكَتِمٍ ما بين منسجمٍ موافقٍ لِهَوَى النَّفس، ومُضطرمٍ مُواجِهٍ مُعاندٍ لرغبة المحِبِّ الصَّبِّ الوَلْهان، ويغدو أَمْرُ الهوى نافذًا: استتارًا تارةً وإعلانًا تارةً أخرى، وعدولُ الدَّمْع شاهدةٌ في كُلٍّ، والسَّقمُ والعَبَرَةُ والضَّنَى والأرقُ دلائل، فالحبُّ يَعترضُ اللَّذاتِ بالألم، وكأنَّه بالألم يعيشُ ويتمكَّنُ صبيبُه من القَلْبِ.

وحينذاك يَتجاوزُ الصَّبُّ لحظةَ الفناء داخل العِشْقِ المنكتِم، فيخرجُ لمواجهةِ اللَّائمِ في الهَوَى العُذْرِيِّ ليقولَ بلسانِ الحالِ: معذرةً لم تُنصف بلَوْمِك، فلو أنصفتَ لم تَلُمِ؛ خاصَّة و"قد بَلَغَتْكَ حَالِي، وتعرَّفت لَوْعَتِي وغرامي، وباتَ ما خَفِيَ منِّي مكشوفًا للوُشاة، ولم تنقطعْ معاناتي وأسقامي بوَصْلِ الحبيب ومؤانسته"، فأنَا عن نُصحِك مُعْرِضٌ، وعن العُذَّالِ/ الوُشاة في صَمَمٍ، وكيف يستنصحُ مَنْ قِيادُهُ في الحُبِّ ليس طَوْعَ يمينه، وكأنَّنا بالشَّاعر بعدُ تَغْشَاهُ استفاقةٌ من لَوْعَةِ العِشْقِ ليستحضرَ اتِّهامَ شَيْبِهِ له، رغم أنَّه أَبْعَدُ النُّصحاء عن التُّهمة

والرِّيبة، خاصَّةً وهو النَّاصِحُ له بالتزامِ الوقارِ، فلا يُفيد النُّصْحُ مع ذلك لِيَتَحقَّقَ به الانتصاحُ، فالشَّاعِرُ واللَّائِمُ هُوَ هُو.

وهكذا فالمَشاهدُ النَّفسيةُ تتوالى في هذا المِدْخَلِ، والأحاسيسُ تتداخلُ، ويظلُّ الغالب فيها هو هذه الرَّغبةُ الجموحةُ في الاستمرارِ فيما يُذكي هذه الرُّوح: روح العشق والمحبة، ولو من جهة التَّذكر المأْخوذِ من الذُّكْرِ مِمَّا يَكُونُ بالقَلْبِ ويَقُومُ بالاستحضارِ لِمَا كانَ، والرَّغبة في السَّيْرِ على المِنْوَالِ، واتِّباع نَهْجِ سَيِّدِ الأَنَامِ المُصْطَفى العَدْنَان.

ولهذا ما يَلْبَثُ الشاعرُ أن تتملَّكه روحُ استحضارٍ من قامت البُردة لأجل مَدْحِهِ، وهو الرَّسُول المصطفى –صلى الله عليه وسلم–، فحينذاك تجدُ التذكُّر واجبًا، والعشقَ وعدمَ كتمانِ الحُبِّ أيضًا فَرْضًا، والوجدَ مثبتًا، وعدولَ الدمعِ واقعًا، وأرقَ الحُبِّ مُتَكَشِّفًا، ومنطوقَ الهوى العُذْرِيِّ دالًّا.

فأَصْلُ المَحَبَّةِ عِشْقٌ، وأصلُ العِشْقِ إخلاصٌ، وأصلُ الإخْلاصِ وفاءٌ، وأَصْلُ الوفاءِ انتماءٌ، وأَصْلُ الانْتِمَاءِ اتِّباعٌ، ومَدْحُ المُصْطَفَى –صلى الله عليه وسلم– عِشْقٌ وإخْلاصٌ ووفاءٌ وانتماءٌ واتِّباعٌ، وهنا نَسْتَحْضِرُ مِمَّا جاءَ في مَدْحِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– بالأفضليَّةِ ونحوِها قولَ الإمامِ البوصيري:

مُحَمَّـدٌ سَيِّـــــــدُ الكَوْنَيْــنِ والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ

حيثُ تَوَزَّعَ هذا الفَصْلُ إلى العديدِ من المحاورِ الدَّلاليةِ التي عكستْ أغراضَ المَدْحِ النَّبويِّ الشَّريفِ لدى الشاعرِ، نذكرُ منها: الاصطفاءَ، وتبليغَ الرِّسالة، ومِنَّةَ الشَّفاعة، والدَّعْوَةَ إلى الله تعالى ووجوب التَّمَسُّك بِحَبْلِ اللهِ المتِينِ، والمُفاضلةَ أوالتَّخْيِير بين الأنبياءِ في الخَلْقِ والخُلُقِ والعِلْمِ والكَرَم، والتَّنْزِيه، والحكمةَ في المِدْحِ دون ادِّعاءِ كادِّعاءِ النَّصارى، وشَرَفَ الذَّات وعِظَمَ القَدْرِ، والفَضْلَ المُحَمَّدِيَّ، والآياتِ والمعجزاتِ، والرَّحمةَ المُهداةِ، وإعجازَ الخَلْقِ عن فَهْمِ الحقيقةِ المحمَّديةِ، والبشريةَ والخَيْرِيَّة، والفَصَاحةَ النَّبويةَ...، وغيرها من أغراضِ المديحِ النَّبوِيِّ الشَّريفِ الَّتي قامَ عليها البناءُ الدَّلاليُّ لهذا الفَصْلِ من البردةِ، غَيْرَ أنَّنا سنُقْصِرُ الحديثَ على بعضِها فحسب في محاولةٍ للوقوفِ على طبيعةِ بنائها اللُّغَوِيِّ وما يُحِيلُ إليهِ من أبعادٍ دلالية.

أولا– الاصطفاءُ بين الصَّفْوِ والاختيارِ: والدَّال عليه بقوله:

مُحَمَّـدٌ سَيِّـــــــدُ الكَوْنَيْــنِ والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَمِ

وهو الاصطفاءُ المُتَحَلَّى بالسِّيادةِ أو السُّؤْدَدِ، حيثُ معلومٌ أنَّ الله تعالى اصْطَفَى الرُّسُلَ والأنبياءَ وجَعَلَ سَيِّدَهُمْ وخاتمَهم سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا –صلى الله عليه وسلم–، مِصْدَاقًا لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب، 40]

عِلْمًا بأنّه رُجِّحَ بأنَّ الاصطفاءَ مأخوذٌ مِنْ مَعْنَيَيْنِ:

- المعنى الأول: من الصَّفاء والصَّفْو، ويَعني الخُلوصَ من الشَّوائبِ؛
- المعنى الثّاني: من الاصطفاءِ بمعنى الاختيار، مأخوذٌ من صَفْوَةِ الشَّيْء. يُقال: صَفوة صِفوة صُفوة، بالحركات الثلاث. صفوةُ الشيءِ: اختيار، وأَخْذُ صَفْوَةِ الشيءِ يُقال له اصطفاء.

إذا فالاصطفاءُ انطلاقًا من هذين المَعْنَيَيْنِ هو خلوصُ الشَّيْءِ وصفاؤُهُ، واختيارُه وتفضيلُه وتقديمُه، وهو ما يدلُّنا على صفاءِ مَعْدِنِ المُصطفى-صلى الله عليه وسلم- واصطفائهِ من قِبَلِ المولى -عَزَّ وجلَّ؛ فهو سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ: الدُّنْيا والآخرة، والثَّقَلَيْنِ: الجِنِ والإنس، والفريقين: العُرْب والعَجَم، حيث سائر الأنبياء بُعثوا إلى قَوْمِهِمْ خاصَّةً: "فالله يقول عن عيسى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [من آل عمران،49]، وعن هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[من الأعراف،65]، وعن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[من هود،61] ...، في حين أنَّ رسولَنا- صلى الله عليه وسلم- بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً في زمانِه وفيما بعد زمانه، فهو خاتم النَّبيين. قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [من سبأ،28]. وقال -جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [من الأحزاب،40]. وفي الحديثِ الَّذي رَوَاهُ الشَّيْخَانِ: "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[12].

ومن ثمَّ فهذه المِنَّةُ الرَّبانية: الاصطفاء للنبّوة وهذا السُّؤدد، مَثَّلَ المَدْخَلَ الحقيقيَّ لِبَابِ المديحِ النَّبويِّ عند الإمام البوصيري-رحمه الله-، فهو اصطفاءٌ إلهيٌّ مصداقًا لقوله تعالى في مُحْكَمِ كتابِهِ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[الحج، 75].

وظهرت آثارُ اصطفاءِ الله للمُصطفى صلى الله عليه وسلم في جوانبَ كثيرةٍ، ذَكَرَ منها صاحبُ "محبة الرَّسُول بين الاتِّباع والابتداع": طهارةَ نَسَبِهِ، وتعهُّدَ الله برعايته وحِفْظِهِ وعِصْمَته، وتكميلَ الله له المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا، وتشريفَه بنزول الوحي عليه، وكَوْنَهُ خاتمَ النَّبيئين، لِيَخْتِمَ بالقول:

(ومظاهرُ اصطفاء الله لنبيِّه صلى الله عليه وسلم كثيرةٌ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، لكثرة فضائله وما خَصَّهُ اللهُ به من صُنوف الخَيْرِ والفَضْلِ، ويَكْفيهِ شَرَفًا أنَّه سَيِّدُ وَلَدِ آدم، وأنّه صاحب المَقام المحمود، والحَوْضِ المورود، واللِّواء

---

[12]- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيئين صلى الله عليه وسلم، رقم: 3535.

المعقود، فصلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. واصطفاء الله للنَّبي -صلى الله عليه وسلم- دليلٌ على حُبِّ الله، كما أنَّه يُوجِبُ محبَّةَ العبادِ لهذا النَّبِيِّ العظيمِ)[13].

ولهذا فالشَّاعر البُوصيري قد عَبَّرَ عن حقيقةِ الاصطفاءِ الرَّبَّاني للعِتْرَةِ الشَّريفة، في سِيَاقِ المدْحِ، بالأسلوبِ الخَبَرِيِّ القائمِ على أساسِ جُمْلَةٍ اسميَّةٍ مُثْبَتَةٍ: (مُحَمَّدٌ سَيِّدُ)، فجَعَلَ الخَبَرَ الـمُفْرَدَ مُعرَّفًا بالإضافة: (الكَوْنَيْنِ)، منعوتًا بعَطْفِ النَّسَقِ: (والثَّقَلَيْنِ والفريقَيْنِ) المُحِيلِ إلى التَّرتيبِ في ضَوْءِ إقْرَارِ ثُنائية الخَلْقِ من خلال صِيغة التَّثْنِيَةِ، فهو-صلى الله عليه وسلم-: سَيِّدُ الدُّنْيَا والآخِرَة، وسَيِّدُ الجِنِّ والإِنْس، وسَيِّدُ العُرْبِ والعَجَمِ، عِلْمًا بأنَّ "الواوَ" في حُكْمِ النُّحاةِ تُفِيدُ مُطلَقَ العَطْفِ. يقول ابنُ مالكٍ الأندلسيِّ(ت672هـ) في "الخُلاصة":

فَاعْطِفْ بِوَاوٍ سابقًا أولاحِقًا   في الحُكْمِ أومُصَاحِبًا مُوَافِقا[14]

ثُمَّ إنَّ الاستدلالَ على حقيقةِ الاصطفاءِ انتفتْ فيه الأفعالُ بمُوجِبِ إقْرَارِ واقِعِ الإثباتِ، ومعلومٌ أنَّ هذا الاصطفاءَ الرَّبانِيَّ جاءَ رحمةً للعالمين، فأساسُه دعوةٌ إلى الحَقِّ، وجوهرُه تبليغٌ للرِّسالة، وتأديةٌ للأمانة مِنْ قِبَلِ خَاتِمِ الأنبياءِ والرُّسُلِ.

ثانيا- تبليغُ الرِّسالةِ: انطلاقًا من الأَمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنْكَرِ، فهو الأَبَرُّ في القولِ المقبولِ الـمُصدَّقِ، بقوله:

نبيُّنا الآمِرُ النَّاهِي فلا أحدٌ   أبرَّ في قَوْلِ لا منهُ ولا نَعَمِ

حيث يَنُصُّ الشَّاعِرُ من خلال هذا البيت على وظيفة التَّبليغ التي وُكلت للمصطفى-صلى الله عليه وسلم- بالدَّعوة إلى الدِّين الحنيف، فأدَّى الأمانة، وبَلَّغَ الرِّسالة، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[من المائدة، 67].

ومِمَّا جاء في تفسير هذه الآيةِ الكريمةِ، قَوْلُ السَّعْدي في "تَيْسِيرِ الكريمِ الرَّحمنِ في تفسيرِ كَلامِ المنَّانِ":

(هذا أَمْرٌ من اللهِ لرسولِهِ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- بِأَعْظَمِ الأوامرِ وأَجَلِّهَا، وهو التَّبليغ لما أَنْزَلَ اللهُ إليه، ويَدْخُلُ في هذا كُلُّ أَمْرٍ تَلَقَّتْهُ الأُمَّةُ عنه-صلى الله عليه وسلم- من العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ والأحكامِ

[13]- عثمان عبد الرؤوف محمد، محبة الرَّسُول بين الاتباع والابتداع- رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط1/ 1414هـ، (المبحث الثالث: النبوة اصطفاء إلهي)، ص:21.

[14]- ابن مالك أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ألفية ابن مالك- دار السلام، مصر، ط 6/ 1432هـ-2011م، عطف النَّسَق، ص:124.

الشَّرعيةِ والمطالبِ الإلهيةِ، فبلَّغ –صلى الله عليه وسلم– أَكْمَلَ تبليغٍ، ودعا وأَنْذَرَ، وبَشَّرَ ويَسَّرَ، وعَلَّمَ الجُهَّالَ الأُمِّيينَ حتَّى صاروا من العلماء الرَّبانيين، وبَلَّغَ بِقَوْلِهِ وفِعْلِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ: فلم يَبْقَ خَيْرٌ إلا دَلَّ أُمَّتَهُ عليه، ولا شَرٌّ إِلَّا حَذَّرَهَا عنه، وشَهِدَ له بالتَّبليغ أفاضلُ الأُمَّةِ من الصَّحابة، فمَنْ بَعْدَهُمْ من أئمَّة الدِّينِ ورجالِ المسْلِمينَ)[15].

وعليه، فالنَّاظمُ وَصَلَ مِنَّةَ الاصطفاءِ بِمُهِمَّةِ التَّبليغ في أَوَّلِ مَدْحِهِ للمصطفى –صلى الله عليه وسلم–، فدَلَّ على ثُبوتِ الصِّفةِ وتحقُّقِها بعد اعتمادِ **صيغةِ الإضافةِ** في تأكيد الانتساب بمَنْطِقَي الإيمان والاتِّباع كأُمَّة– لا كفَرْدٍ فحسب مُعَظِّمٍ لِنَفْسِهِ–؛ أي الانتساب إلى النَّبِيِّ محمد–صلى الله عليه وسلم–: (نبيِّنا)، فدَلَّ بعدُ بنُهوضه بالـمُهِمَّةِ الاصطفائية بصيغة: "**اسم الفاعل**" سواء في حال الأمر بالمعروف: (الآمر)، أو في حال النَّهي عن الـمُنْكَرِ: (الناهي)، كما دَلَّ على استيفائه –صلى الله عليه وسلم– هذه الـمُهِمَّة بصيغة **اسم التَّفضيل**: (الأَبَرّ)، فهو الأَبَرُّ في مُطْلَقِ قَوْلِهِ: أصدقُ النَّاس في ما أَمَرَ به وما نَهَى عنهُ، مصداقًا لقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[النجم، 3–5].

هذا وقد أقامَ الشَّاعرُ البوصيري تعبيرَه عن هذا الغرضِ فيما يَخُصُّ المديحَ الشَّريفَ على مجموعةٍ من الأُسُسِ اللُّغوية، أهمُّها:

– **صيغة الإضافة**: التي وُظِّفَتْ في تعريف الاسم الذي افتُتِح به البيت: (نبيُّنا)، حيث تحقَّق بها التَّعْيِينُ من جانبين:

- تعيينٌ للنَّبِي المُصطفى–صلى الله عليه وسلم– دون سائر الأنبياء والرُّسُلِ، وذلك بمُوجب قرينةِ كَوْنِ الشَّاعر البُوصيري مُسْلِمًا؛
- تعيينُ أتباعِ المصطفى–صلى الله عليه وسلم– المسلمين، الذين دَلَّ عليهم الاسمُ الضميرُ المتَّصِلُ المضاف إليه: (نا)

– **صيغتا اسم الفاعل**: (الآمر)، و(الناهي)؛

– **صيغة تفضيل**: (الأبر)، على وزن: "أفعل".

وانتفى توظيفُ الفعل من السِّياق، بحُكْمِ أنَّ ما نُصَّ عليه من معنى التَّبليغ في ضوء الاصطفاء ثابتٌ أيضا، كما تمثَّلت مفاضلةٌ بين الرَّسُول –صلى الله عليه وسلم– وسائرِ الخَلْقِ في النَّهج القويم: (فلا أحدٌ أبرَّ في قولٍ لا منهُ ولا نعَمِ)، الذي مِنْ أُسسِهِ الَّتي دَلَّتْ عليها السِّيرةُ العَطِرَةُ: الصِّدْقُ والحَزْمُ.

---

[15]– السَّعْدي عبد الرحمن بن ناصر(ت1376هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان، تح: عبد الرحمن بن معلا اللُّوَيْحِق– مؤسسة الرسالة، ط1/ 1420هـ–2000م، ج1/ ص: 239 .

أمّا **حروف المعاني**، فتنوّعتْ وساهمتْ في تشكيلِ صورةِ المعنى المُرادِ، فما بين:

- "**فاء الاستئناف**" التي تَسْتَنْفِرُ المتَلَقِّي للتنبُه لاعتقاد المعنى؛ بحُكْمِ أنَّ الرَّسُولَ-صلى الله عليه وسلم- هو الأَبَرُّ المبْرُورُ والصَّادِقُ المصدَّقَ في القَوْلِ والعَمَلِ: (فلا أحدٌ أبرَّ في قَوْلِ لا منهُ ولا نَعَمِ) ؛

- "**لا النَّافية للجنس**" التي تَنْفِي مُطْلَقَ جِنْسٍ عَقِبَهَا قَطْعًا للشَّكِّ باليَقين؛ فلا جنسَ أَحَدٍ أبرّ منه- عليه الصلاة والسلام؛

- "**في**" الجارَّة التي تُمَثِّلُ سبيلًا لحصْرِ وتدقيقِ مجال التَّحقيق: (في قول)؛

- "**لا**" حرف النَّفْي الذي يَرِدُ جَوَابًا عَكْسَ: "نعم"، والتي أَتَتْ في مَوْضِعِ المضاف إليه على الحكاية، خاصَّةً والمراد لَفْظُهَا مِمَّا يَصْدُرُ به جوابُ الرَّسُول -صلى الله عليه وسلم- فيما لا يَحِقُّ إتيانه: جوازًا أووجوبًا؛

- "**من**" الجارَّة التي تَرْبِطُ الصِّلَةَ بما يَصْدُرُ من النَّبِي الأبر في سياق هذه الوظيفة: (منه)؛

- "**واو**" عَطْفٍ التي تَعْطِفُ السَّابقَ على اللَّاحق وهي لِمُطْلَقِ العطف، لِتَصِلَ بين وشائج المعنى: اتفاقًا وتضادًّا، حسب ما يُوجبه الحُكْمُ الشَّرْعِيُّ؛

- "**لا**" النَّافية اللاحقة الموصولة بَعْدُ بحرف جواب: "**نعم**".

فبهذه الحروف كُلِّها قام معنى التَّبليغ في رسالة المصطفى، وتَحَقَّقَ في منطوقِ الشَّاعر البوصيري، فجاءت هذه الوسائطُ الحرفيَّةُ ذات معانٍ مختلِفةٍ ومتكاملةٍ في بناءِ معالمِ صورةِ المَدْحِ، فأفادتْ في تأديةِ هذا الغرضِ الشَّريفِ، لِيَنْتَقِلَ الشَّاعرُ بعدها لِمِنَّةِ الشَّفاعةِ في مَدْحِ المصطفى المختارِ.

ثالثا- الشَّفاعة بين الرَّجاء والإرجاء: الدَّال عليها، بقوله:

هو الحبيبُ الَّذي تُرْجَى شفاعته لِكُلِّ هَوْلٍ من الأهوالِ مُقتحَمِ

فهو الشَّافعُ المُشفعُ لأُمَّتِهِ الحبيب المصطفى- صلى الله عليه وسلم-، الذي أرجأ دَعْوَتَهُ لأُمَّتِهِ إلى يومِ القيامةِ. قال رسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا)[16].

[16]- رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته، رقم: 338.

فكأنَّنا بالفِعْلِ: (تُرْجَى) يَجْمَعُ بين مَعْنَيَيْ: **الرَّجاءِ**، وهو الرَّجاءُ في تَحْصِيلِ الشَّفاعةِ، و**الإرجاءُ** إلى يومِ القيامةِ، بحُكْمِ منطوقِ الحديثِ ودلالتِه، ليوقفَنا الشَّاعرُ على الشَّفاعة الخاصَّة بنبينا محمد–صلى الله عليه وسلم– من بين الأنبياء والرُّسُلِ، وهو ما يُزَكِّيه حديثُ الشَّفاعة عن أنس ابن مالك:

(إذا كان يومُ القيامة مَاجَ النَّاسُ بعضُهم في بعض...الحديث)

حيث يأتي الله –سُبحانه وتعالى– لفَصْلِ القَضاءِ بين الخلائقِ، فيستشفِعون إلى آدمَ فمَنْ بَعْدَهُ من الأنبياءِ فيعتذرُ كُلُّ واحدٍ منهم، ثم يأتونَ مُحَمَّداً عليه الصّلاة والسّلام، فَيَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَيَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّه فَيُؤْذَنُ له وَيُلْهِمُه مَحَامِدَ يَحْمَدُهُ بِهَا، وَيَخِرُّ للرَّحمان سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فيقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَنْطَلِقُ فيفْعَلُ، ثُمَّ يعُودُ فيحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ يَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخرِجهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ)[17].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، قَالَ: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَلا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامِ...، ثم ذكر الحديث إلى قوله : فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)[18].

فهذه هي الشَّفاعةُ العُظمى يَوْمَ القيامةِ، وهي"المقامُ المحمودُ الَّذي يَرْغَبُ فيه الأوَّلون والآخِرون إلى النَّبِي–صلى الله عليه وسلم– لِيَشْفَعَ لهم عند ربِّهم، كي يُخَلِّصَهُمْ من هَوْلِ المَحْشَرِ"، ولهذا يُوصِلُ الشاعر البوصيري –

---

[17]–صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرَّبِّ عَزَّ وجَلَّ يوم القِيَامَة مع الأنبياء وغيرهم، رقم: 7510.

[18]– صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء،3]، رقم: 4712.

استخلاصًا لهذا المعنى- لَفْظَ الحبيب بـ"هو": (هو الحبيب) فيُقيم نَسَقًا لُغَوِيًّا مُكْتَفِيًا بذاته: جملة اسمية، يعقبُها بنَعْتٍ جملة للحبيب المصطفى: (الذي ترجى شفاعته)، وما بين الجملتين: الجملةِ النَّواةِ والجملةِ التَّابعةِ يتحقَّق المعنى ويَسْمُو الغَرَضُ، والفعل المِحْوَر: (تُرْجَى) المبني للمجهول قَصْدًا، يَظَلُّ هو واسطةَ العِقْدِ في هذا التَّعبير الشِّعْرِيِّ كَكُلٍّ، فدَلَّ الغرضُ على القَصْدِ عند الشاعرِ ومَنْ يَتَحَدَّثُ بِاسْمِهِمْ دونَ تصريحٍ مباشرٍ، وهو رجاءُ نَيْلِ الشَّفاعةِ المُحَمَّدِيَّةِ.

رابعا- دعوة الرَّسولِ-صلى الله عليه وسلم- إلى الله تعالى ووجوب الاتِّبَاع: انطلاقًا من السَّيْرِ على المِنْوالِ، وهو ما يَدُلُّ عليه الشَّاعِرُ ويُحِيلُ إليه بِقَوْلِهِ :

دَعَا إلى اللهِ فالمُستمسكونَ بِهِ مُستمسكونَ بحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

فهو الذي دَعَا النَّاسَ بالاصْطِفَاءِ الإلهي والتَّكْلِيفِ الرَّبَّانِيِّ إلى الإيمان بدِينِ الإسلامِ، والاستمساكِ بحَبْلِ الله المَتينِ: كتابِ الله العزيزِ الَّذي لا يَأْتِيهِ الباطِلُ من بين يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ. قالَ رسولُ الله- صلَّى الله عليه وسلَّم- : (كِتَابُ اللهِ هو حَبْلُ الله الممدودِ من السَّماءِ والأرض)[19]، وقالَ عليه الصلاة والسلام: (إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه)[20].

وقال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران، 103]، فالرَّسُول صلى الله عليه وسلم هو الرَّحمةُ المُهداةُ للعالمين، مَنْ سَارَ على نَهْجِهِ نَجَا واعْتَصَمَ. يقول الحقُّ سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُول إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا.﴾ [النساء، 59]، ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [من الحشر، 7].

فالاستمساكُ بهذا النَّهْجِ استمساكٌ بالعُرْوَةِ الوُثقى الَّتي لا انفصامَ لها، وهو الذي يقومُ بتحقُّقِ الإيمانِ، ويَصْدُقُ بالاتِّباعِ قولًا وعَمَلًا، وبهذا فالمعنى قد تمثَّل بفِعْلٍ ماض: (دَعَا) تأكيدًا لتَحَقُّقِ فِعْلِ الدَّعوةِ ووجوبِ ما يترتَّبُ عنه من اتِّباع النَّهْجِ الصَّحيح، فهي الدَّعوة إلى الله التي ذُكِرَ بأنَّ المقصودَ بها (وُصُولَ الْعِبَادِ إِلَى مَا خُلِقُوا لَهُ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَالعِبَادَةُ أَصْلُهَا عِبَادَةُ الْقَلْبِ الْمُسْتَتْبِعِ لِلْجَوَارِحِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ هُوَ المَلِكُ، وَالْأَعْضَاءَ جُنُودُهُ، وَهُوَ الْمُضْغَةُ الَّذِي إذَا صَلحتْ صَلحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ

---

[19] الطبري، تفسير الطبري، 7/ 72

[20] ابن كثير، تفسير ابن كثير 89/2

بِعِلْمِهِ وَحَالِهِ كَانَ هَذَا الْأَصْلُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ: بِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، هُوَ أَصْلُ الدَّعْوَةِ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذَّاريات، 56])[21].

وأخذًا بِعَيْنِ الاعتبار أنَّ دعوة النَّبِيِّ –عليه الصَّلاة والسَّلام– تَمَثَّلَتْ بِمَرَاحِلَ ست رَئِيسَة: أوَّلُها مرحلةُ الاصطفاء للرِّسالة ونُزُول الوَحْي، وثانيها مرحلةُ الدَّعْوَةِ سِرًّا، وثالثُها الجَهْرُ بالدَّعْوَةِ، ورابعُها الهِجْرَةُ إلى المدينةِ، وخامسُها إقامةُ أُسُسِ الدَّوْلَةِ الإسلاميةِ وإرْسَاءُ قَوَاعِدِها، وسادسُها العَمَلُ على نَشْرِ رِسَالةِ الإسلامِ.

كما أنَّ الدَّعْوَةَ المُحَمَّدِيَّةَ مُيِّزَتْ فيها مراتبُ مُتَدَرِّجة: بَدْءًا بالنُّبُوَّةِ، فإنذار العَشِيرة الأَقْرَبِين بما يَخُصُّ الأَهْلَ والأصحاب، فإنذار القوم والمقصودُ بهم قريش، فإنذار العرب قاطبة، فإنذار جميع من بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ من الثَّقَلَيْنِ إلى يوم الدِّين، فهو المصطفى الخاتم.[22] قال الله جَلَّ وعَلَا لِنَبِيِّهِ –صلى الله عليه وسلم–: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف، 108]

ثم لاجَرَمَ أنَّ المُؤَمَّلَ في الدَّعْوَةِ التَّخليصُ إلى الإيمان بالمعبودِ الخالقِ تحصيلًا لِحُسْنِ الخاتمة وفوزًا بالنَّجاة، وهو مادلَّت عليه: "**إلى**" بما تُفيد من معنى الانتهاء، وما أَقَرَّتْهُ "**الفاء**" من وجوب الفورية في الاتِّباع استمساكًا بحَبْلِ الله غَيْرِ المُنْفَصِمِ، وما أحال إليه **التّكرار** من تقريرِ المعنى وتأكيدِه: (فالمُسْتَمْسِكُونَ به مُسْتَمْسِكُونَ) باعتبارها الحقيقة الثَّابتة، بناءً على التَّصديق بالوَعْدِ الحَقِّ، و**صيغةُ الجَمْع** تظلُّ هي الدَّالةُ على تلك الصِّلَةِ الجامعةِ واللُّحْمَةِ الواجبةِ في إطار هذا الدِّين الخاتِمِ الجامعِ، خاصَّةً وهي قد وُصِلَتْ بموضوعها:(مستمسكونَ بحَبْلٍ)، فمَثَّلَتْ استعارةً أساسُها تَشْبيهُ جَوْهَرِ هذا الدِّينِ: القرآن الكريم بِحَبْلٍ غيرِ مُنْفَصِمٍ، بِجَامِعِ أَنَّ كِلًا منهما مُنْقِذٌ مَتِينٌ، وبِحَذْفِ الشَّاعِرِ للمُشَبَّهِ (القرآن الكريم/ الدِّين) وتَصْرِيحِهِ بالمشَبَّهِ به (الحَبْل)، تَمَثَّلَتْ في البَيْتِ الشِّعْرِيِّ صورةَ استعارةٍ تَصْرِيحِيَّةٍ أَصْلِيَّةٍ، فجاءَتْ معْبَرًا إلى المُفَاضَلَةِ بين النَّبِيِّ المُبَلِّغِ الأمينِ وسائرِ الأنبياءِ عليهم السَّلَامُ والنَّاس أجمعين في الخَلْق والخُلُق، والعِلْمِ والحِلْمِ، والتَّنْزيه، والحكمة، وشَرَفِ الذَّاتِ وعِظَمِ القَدْرِ...، وغيرها من أغراض هذا الفَصْلِ في المَدِيحِ النَّبوِيِّ الشَّرِيف.

خامسا– المُفاضلة في الخَلْقِ والخُلُقِ والعِلْمِ والكَرَمِ: وهي التي دَلَّ عليها قولُ النَّاظم في سِياق مَدْحِ النَّبِي–صلى الله عليه وسلم–:

---

[21]– ابن تيمية تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (728هـ)، مجموع الفتاوى– تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم– مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1995م، ج2/ ص:6.

[22]– ابن قيِّم الجوزية(ت751هـ)، زاد المعاد في هَدْيِ خَيْرِ العِباد– مؤسسة الرسالة، بيروت، ط27/ 1415هـ–1994م، فصل في ترتيب الدعوة ولها مراتب، مج1/ ص: 84 (بتصرف)، وينظر: المطلق إبراهيم بن عبد الله، التَّدَرُّج في دعوة النبي– مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ط1/ 1417هـ.

فاقَ النَّبِيئين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدانـوهُ في عِلْـمٍ ولا كَـرَمِ
وكُلّهِمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أو رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ
وَواقِفُـونَ لَدَيْـهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ مِنْ نُقطةٍ في العِلْمِ أو مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

فالشَّاعرُ قد عَقَدَ هذا المعنى من المديحِ النَّبويِّ بجُملتين فِعليتينِ:

أولاهما- تَصَدَّرَها فعلٌ ماض مُثْبَتٌ: (فاقَ) ليُؤَكِّدَ من خلالِه تحَقُّقُ فِعْلِ التَّفَوُّقِ في الخَلْقِ والخُلُقِ للرَّسُولِ المصْطَفَى-صلى الله عليه وسلم- على سائرِ الأنبياءِ؛

وثانيتهما- أساسُها فعلٌ مضارِعٌ مَنْفِيٌّ:(لم يُدَانُوهُ)، وهو الذي مَثَّل المسْنَدَ في هذه الجملة.

وفي كلتا الجملتينِ تَعَيَّنَ المسندُ إليه، وهو العُمْدة في القَوْلِ والمعنى، بضمير:

أ- (هو) : بمعنى (فاق هو)؛ أي النبيَّ-صلى الله عليه وسلم- الذي فاقَ سائرَ الأنبياءِ: خَلْقًا وخُلُقًا، وسَما عنهم عِلْمًا وحُكْمًا؛

ب-و(واو الجماعة): في: "يُدانوهُ"، والقَصْدُ: النّبيئين، بحُكْمِ أنَّ الضميرَ يعودُ على أَقْرَبِ مذكورٍ.

كما تجَلَّى مَنْ وَقَعَ عليه الفعلُ:

- **إثباتًا** بصيغةِ الجَمْعِ: في "النَّبيئينَ" (فاق النَّبيئينَ)، ليؤَكِّدَ من خلالِهِ الشَّاعرُ فِعْلَ تفوُّقِ المصطفى-صلى الله عليه وسلم- على سائر النَّبيئينَ: خَلْقًا وخُلُقًا؛
- **نَفْيًا** بصيغةِ المفُرَدِ: في الضَّميرُ المتَّصِلُ "ـه" في: (لم يُدَانُوهُ)، وهو ما يُوافقُ المقصودَ السَّابقَ، فهم لم يُدانوهُ في عِلْمِهِ وحُكْمِهِ أيضا.

وفي سياقِ إقرارِ الشَّاعِرِ لهذا المعنى في المَدْحِ عَبْرَ أسلوبي الإثباتِ والنَّفْيِ: إثباتِ التَّفَوُّقِ في الخَلْقِ والخُلُقِ، ونَفْيِ القُدرةِ على الدُّنُوِّ من مستوى عِلْمِهِ ومَبْلَغِ حُكْمِهِ وفَيْضِ كَرَمِهِ، قد تتشعَّبُ المقَاربَاتُ الدَّلاليةُ بحُكْمِ ما تُحيلُ إليه هذه الأبياتُ الشِّعريةُ من إقرارٍ لِقِيَامِ التَّفاضُلِ بين الأنبياءِ وتَفْضيلِ بعضِهِم على بعضٍ، هذه الحقيقةُ الَّتي تَجِدُ مُسَوِّغاتِها الشَّرْعِيَّةَ في أَدِلَّتِها من الكِتابِ والسُّنَّةِ، وكلُّها تَقُومُ على الإقرارِ بحقيقةِ تفضيلِ الأنبياءِ، خاصَّةً وأنَّهُ قد نُصَّ عليها في مُحْكَمِ الكِتَابِ، ومن هذه الأدِلَّةِ النَّقْلِيَّةِ قَوْلُهُ تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...الآية﴾ [البقرة،253].

غَيْـرَ أنَّ هـذا التَّفضيلَ لا يَـنْـهَضُ على الإزراءِ ببعضِ الأنبياءِ وهُـمْ أَهْـلُ الاصْـطِفَاءِ الرَّبَّاني، ولهذا وَرَدَ النَّـهْيُ عن ذلك في السُّنَّةِ، وكذا النَّهْيُ عن تفضيلِ نبيِّنا-صلى الله عليه وسلم-، مثل الحَدِيثَيْنِ الوارِدَيْنِ في الصَّحِيحَيْنِ: "لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ"، و"لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى"[23]، وهو ما فَسَّرَهُ الخَطَّابِيُّ بِقَوْلِهِ: (مَعْنَى هَذَا تَرْك التَّخْيِير بَيْنهمْ عَلَى وَجْه الإِزْرَاءِ بِبَعْضِهِمْ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى فَسَاد الاعْتِقَاد فِيهِمْ وَالإِخْلال بِالْوَاجِبِ مِنْ حُقُوقهمْ، وبِفَرْضِ الإيمانِ بهم، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يعتقدَ التَّسْوِيَةَ بَيْنهمْ فِي دَرَجَاتهمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سبحانهُ قد أَخْبَرَ أَنَّهُ قد فَاضَلَ بينهم، فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ﴾)[24].

ولَعَلَّ من أَحْسَنِ ما يُفِيدُ في توضيحِ ذلك ما ذَكَرَهُ القُرطبي في تفسيرِه، حيثُ قالَ بَعْدَ إيرادِهِ للعديدِ من الأقوالِ الواردةِ في تفسيرِ هذا النَّهي، في ضوءِ قيامِ حقيقةِ التَّفاضُلِ في القرآن الكريم: (وَأَحْسَنُ مِنْ هذا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إنَّ المَنْعَ مِنَ التَّفضيل إنَّما هو من جِهَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي هي خَصْلَةٌ واحدةٌ لا تَفَاضُلَ فِيهَا، وإنَّما التَّفضيلُ في زيادةِ الأحوالِ والخُصوصِ والكَراماتِ والأَلْطافِ والمُعْجِزاتِ المُتَبايِناتِ، وأمَّا النُّبُوَّةُ في نفسِها فلا تَتَفَاضَلُ، وإنَّما تَتفاضلُ بأمورٍ أُخَر زائدةٍ عليها، ولذلك منهم رُسُلٌ، وأولو عَزْمٍ، ومنهم من اتُّخِذَ خليلاً، ومنهم مَنْ كَلَّمَ الله، ورَفَعَ بعضَهم درجاتٍ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[الإسراء،55]، وقالَ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. قُلْتُ: وهذا قَوْلٌ حَسَنٌ؛ فإنَّه جَمَعَ بين الآيِ والأحاديثِ مِنْ غَيْرِ نَسْخٍ. والقَوْلُ بِتَفْضيلِ بَعْضِهِمْ على بَعْضٍ إنَّما هو بِمَا مُنِحَ من الفضائلِ وأُعْطِيَ من الوسائلِ)[25].

وبهذا التفسيرِ ونحوِه قد يَتَّخِذُ قَوْلُ النَّاظِمِ في هذا التَّفضيل للنَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- على سائرِ الأنبياءِ حُجِّيَتَهُ ويُبَرْهَنُ على مشروعيتِهِ، فهو الموعودُ بالمَقَامِ المحْمُودِ، والشَّفَاعةِ للأُمَّةِ، وخَتْمِ النُّبُوَّةِ، والبَعْثِ إلى النَّاسِ كافَّةً... وغيرِها من الدَّلائلِ الَّتي تُوجِبُ له الأفضليةَ على سائر الأنبياء فَضْلًا على النَّاسِ كافَّةً.

فقد سَمَا الرَّسُولُ-صلى الله عليه وسلم- بـ:

---

[23]- الحديثان وردا بأكثر من رواية، ونقلت عنهما قصة مفادُها أنَّه تخاصمَ يهوديٌّ ومسلمٌ، فأقسمَ اليهوديُّ قائلا: "والذي فَضَّلَ موسى على البشر"، فصفعَهُ المسلمُ لقوله ذلك، فاشتكى اليهوديُّ المسلمَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ممَّا جاء في رَدِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا القول الذي يَنْهَى فيه عن التَّخيير والمفاضلة بين الأنبياء؛ خاصَّةً وهو قد جاء في مَعْرِضِ العَصَبِيَّةِ، فلا يُقْبَلُ من صاحبِه ويُرَدُّ عليه. انظر مسند أحمد (17/ 459)

[24]- الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد(ت388هـ)، معالم السُّنَن في شَرْحِ سُنن أبي داود- المطبعة العلمية، حلب، كتاب شرح السنة، باب التخيير بين الأنبياء صلوات الله عليهم، ج4/ ص: 309.

[25]- القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2/ 1384هـ_1964م، ج3/ ص: 263.

- **جَمَالِ الخَلْقِ**: إذ تناولتْ كُتُبُ السِّيرةِ والحَدِيثِ الشَّرِيفِ مُخْتَلِفَ صفاتَ النَّبِي عليه السَّلام الخَلْقِيَةِ بالوَصْفِ والتَّدْقِيقِ، واستعرضتْ كافَّةَ الدَّلائلِ النَّقْلِيَّةِ الواردةِ في هذا البابِ، واستشهدتْ بالعديد من الأقوالِ والرِّواياتِ والأخبارِ ذاتِ الصِّلَةِ، فشُبِّهَ وَجْهُهُ عليه السَّلام بالشَّمْسِ في إشْرَاقِهِ والقَمَرِ في وَضاءَتِهِ ، وجَبِينُهُ بـ" الأَبْلَجِ"، وطُولُهُ بـ"الرَّبْعَة" فهو المَرْبُوع؛ أي وَسِيطُ القَامَةِ، ولَوْنُ بَشَرَتِهِ بـ"الأَزْهَرِ"؛ وهو الأبيضُ الَّتي تَعْلُوهُ حُمْرَةً، وشَعْرُهُ بـ"الرَّجِلِ" أو"السَّبْط"؛ وهو السَّهْل المُسْتَرْسِل... وغيرها من الصِّفَاتِ الشَّرِيفَةِ، فكانَ أَكْمَلَ وأَجْمَلَ النَّاسِ خَلْقًا. ومِمَّا رُوِيَ عنْ أَنَسِ بنِ مالكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عنهُ– قولُهُ: كانَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ –رَضِيَ اللَّهُ عنهُ– إذا رَأَى النبيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُقْبِلًا يقولُ:

أمينٌ مُصْطَفىً لِلْخَيْرِ يَدْعُو كضَوْءِ البَدْرِ زَايَلَهُ الظَّلامُ

ورُوِيَ عنْ أبي هُريرةَ –رَضِيَ اللَّهُ عنهُ–، قالَ: كانَ عمرُ بنُ الخَطَّابِ –رَضِيَ اللَّهُ عنهُ– يُنْشِدُ قولَ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمَى في هَرِمِ بنِ سِنان بن أبي حارِثَة المرّي (ت نحو15 ق.هـ) الذي كانَ رئيسَ قَوْمِهِ بني ذُبْيَان في الجاهليَّة والمعروفِ بِجُودِه، حَيْثُ يَقُولُ:

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ المُضِيءَ لَيْلَةَ البَدْرِ

ثُمَّ يَقُولُ عُمَرُ وجُلَسَاؤُهُ: كَذلكَ كانَ رَسُولُ اللهِ–صلى الله عليه وسلم–، وَلَمْ يَكُنْ كذلكَ غَيْرُه[26].

ثُمَّ إنَّ مِمَّا جاءَ في وَصْفِهِ–صلى الله عليه وسلم– ما وَرَدَ على لسانِ عَلِيِّ بنِ أبي طالبٍ–رَضِيَ اللَّهُ عنهُ– قالَ: (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ–صلى الله عليه وسلم– بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالْقَصِيرِ، وَكَانَ شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، ضَخْمَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ، مُشْرَبًا وَجْهُهُ حُمْرَةً، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ، طَوِيلَ الْمَسْرُبَةِ، إِذَا مَشَى يَمْشِي قَلْعًا كَأَنَّمَا يَنْحَدِرُ مِنْ صَبَبٍ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ مِثْلَهُ صلى الله عليه وسلم)[27].

ولعلَّ من أَبْلَغِ وأدقّ ما جاءَ في صفاتِ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم– الخَلْقِيَّةِ، وَصْفُ أُمِّ مَعْبَدٍ عاتِكَة بنت خالد الخُزَاعِيَّةِ الَّتي استضافتِ الرَّسُولَ–صلى الله عليه وسلم– وصَحْبَهُ بخَيْمَتِهَا حين مُرُورِهم بها أثناء رِحْلَةِ هِجْرَتِهِمْ مِنْ مَكَّةَ إلى المدينةِ. فقَالَتْ في وَصْفِ الرَّسُولِ–صلى الله عليه وسلم–: (رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ

---

[26]– السيوطي جلال الدين (ت911هـ)، جمع الجوامع: الجامع الكبير في الحديث والجامع الصغير وزوائده، تح: خالد عبد الفتاح شبل– دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم: 963، ج11/ 195 (بتصرف).

[27]– البَيْهَقِي أحمد بن الحُسين(ت458هـ)، دلائل النُّبُوَّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة– دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/ 1405هـ، باب جامع صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج1/ صص: 268-269.

وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ؛ فَصْلًا، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ، يَتَحَدَّرْنَ رَبْعَةٌ، لَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ؛ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ؛ إِنْ قَالَ سَمِعُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ. مَحْفُودٌ، مَحْشُودٌ، لَا عَابِسٌ، وَلَا مُفَنَّدٌ)[28].

وعليه، فالشَّاعرُ البُوصيري وهو يَمْدَحُ الرَّسولَ-صلى الله عليه وسلم- من جهة خَلْقِهِ، بما يفيدُ صِفاتِهِ الخَلْقِيَّةِ، ويَحْكُمُ له بتَفَوُّقِهِ فيها على سائرِ الأنبياءِ كان يَسْتَحْضِرُ-لا محالةَ- ما أُثْبِتَ بشأْنِهَا في كُتُبِ السِّيرةِ والحديثِ الشَّريفِ، خاصَّةً وهو الَّذي اعْتَنَى بقراءة السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ —كما تُفيدُ ترجمتُه، وسعى وَراءَ الإحاطةِ بدقائقِ أخبارِ المصطفى-صلى الله عليه وسلم-، ومدائحُه شاهدةٌ في هذا البابِ باقتباساتها، وإحالاتِها، وشواهدِها، ومفرداتِها، وتراكيبِها، وعمومِ بنائِها: لغةً ودلالةً وبيَانًا.

- **حُسْنِ الخُلُقِ**: فهو مَنْ شَهِدَ فيه الحَقُّ سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم،4]، وتفسيرُه: "على دينٍ عظيم، وأدبٍ عظيم"، فقد كان خُلُقُهُ-صلى الله عليه وسلم-القرآن- وهو ما نُقِلَ على لِسَانِ سيِّدتنا عائشة-رَضِيَ اللهُ عنها- أنَّها قَالَتْ: (مَا كَانَ أَحْسَنُ خُلُقًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا دَعَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَلَا مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا قَالَ: لَبَّيْكَ، وَلِذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾)[29].

وهو ما فَسَّرَهُ ابنُ كثيرٍ- رحمه الله-، بِقَوْلِهِ: (وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، صَارَ امتثالُ الْقُرْآنِ: أَمْرًا وَنَهْيًا سَجِيَّةً لَهُ، وَخُلُقًا تَطَبَّعَه، وَتَرَكَ طَبْعَهُ الجِبِلِّي، فَمَهْمَا أَمَرَهُ الْقُرْآنُ فَعَلَهُ، وَمَهْمَا نَهَاهُ عَنْهُ تَرَكَهُ. هَذَا مَعَ مَا جَبله اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، مِنَ الْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالصَّفْحِ وَالْحِلْمِ، وَكُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ)[30].

وقد اجتهد العلماءُ المُفَسِّرونَ والباحثونَ الدَّارسونَ على مَرِّ العُصورِ في تَلَمُّسِ العِلْمِ بأخلاقِ النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- حُبًّا له ورغبةً في الاتِّبَاعِ والاقتداءِ بالنَّهْجِ المُحَمَّدِيِّ الشَّريفِ، وتواترتْ أحاديث كثيرةٌ وأقوالٌ عديدة في إقرارِ حقيقةِ كَوْنِ النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- كانَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وأَكْرَمَهُمْ وأتْقَاهُمْ، سواءً في علاقتِه مع الله -عَزَّ وجَلَّ-: تعلُّقًا، وتعبُّدًا، وتقرُّبًا، وتَأَدُّبًا، وذِكْرًا، وامتثالاً للأوامرِ وانصرافًا عن النَّواهي، أو في علاقتِه مع

---

[28]- روى الحديث الطَّبراني في معجمه الكبير 49/4، والحاكم في المستدرك على الصحيحين 10/3، وقال: "هذا حديثٌ صحيحُ الإسنادِ ولم يُخَرِّجَاهُ". ثجلة: عِظَمُ البَطْنِ وانتفاخُها. صَعْلَة: صِغَرُ الرَّأْس ودقَّتُها، قسيم: من القَسَامة وهي الحُسْن. دَعَج: شدَّة سواد العَيْنِ ونصاعةُ بياضها. وَطَف: طُول. صَهَلٌ: طُول. سَطَعٌ: ارتفاع مع طُول. أَزَجّ: الزَّجَج تَقَوُّسٌ في الحاجِبَيْن مع طُولٍ وامتدادٍ حَسَن. رَبْعَة: مَرْبُوعٌ ليس بطويلٍ ولا قصيرٍ. لا تشنؤه: لا تُبْغِضُهُ. محفودٌ: مَنْ يخدمُهُ أصحابُه احترامًا له وتَعْظِيمًا. محشود: مَنْ يحتشِدُ القومُ له ويَتَجَمَّعُون حوله. لا مُفَنَّد: غير ضعيف العقل.

[29]- أبو نُعَيْم الأصبهاني أحمد بن عبد الله (ت430هـ)، دلائل النُّبُوَّة، تح: محمد رواس- دار النفائس، بيروت، ط2/ 1406هـ- 1986م، الفصل الثاني عشر: ذكر بعض أخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم، ج1/ ص:181.

[30]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم- مرجع سابق، سورة القلم، ج8/ ص:189.

عِبَادِ الله تعالى بمختلِفِ أجناسِهِمْ، وعلى تنوُّعِ مَعَادِهِمْ، وتبايُنِ اعتقاداتهمْ، وتفاوُتِ فُهُومِهِمْ: تبليغًا، وتوجيهًا، وإرْشادًا، ونُصْحًا، وتبشيرًا، وإنذارًا، فهو:

- **الرَّحمةُ المُهْدَاةُ** للعالمينَ الَّذِي حين سُئِلَ الدُّعَاءَ على المشْرِكين، قال-صلى الله عليه وسلم-: "إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وإنَّما بُعِثْتُ رَحْمَةً"[31]؛

- **الشَّاهِدُ** على أُمَّتِهِ بتَبْلِيغِ الرِّسَالة إليهم، بل الشَّاهدُ على الأُمَمِ السَّابقةِ كُلِّهَا بحُكْمِ أنَّهُ خاتمُ الأنبياءِ والرُّسُلِ أجمعينَ؛

- **المُبَشِّرُ** للمؤمنين بالرَّحمة الإلهية وبالجنَّةِ؛

- **النَّذيرُ** للكافرينَ بسُوءِ العقابِ والنَّارِ وبِئْسَ المصيرِ، مِصْدَاقًا لقوله-جَلَّ في عُلَاه-: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب، 45-48].

ولهذا، فقد جَمَعَ الشَّاعرُ البوصيري بين مَدْحِ خَلْقِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم- وخُلُقِه في الآن ذاتِه، خاصَّةً والمأثورُ عنه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في دُعائه، مِمَّا رُوِيَ عن سيِّدَتِنَا عائشة-رضي الله عنها- قولُهُ: " اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي"[32].

فالشَّاعرُ البوصيري وهو يَمْدَحُ رَسُولَ الله-صلى الله عليه وسلم- في سياق هذا الفَصْلِ، نَجِدُهُ يُقَرِّرُ أيضًا مجموعةً من الحَقائقِ المـُحمَّديَةِ الَّتي دَلَّ عليها الكِتَابُ والسُّنَّة في سياق التَّفْضيلِ والخَيْرِيةِ، وهي ما يُمَثِّلُ نموذجًا آخرَ عن الأبعادِ الدَّلاليةِ الَّتي يُحيلُ إليها البِنَاءُ اللُّغَويُّ للبُرْدَة، وحتَّى تَكْتَمِلَ هذه الصُّورَة تجدهُ يَصِلُ التَّنْصِيصَ مَدْحًا على التَّفْضيلِ بالخَلْقِ والخُلُقِ بالعِلْمِ والكَرَمِ، فيُثْبِتُ بذلك حقيقَتَيْنِ اثنَتَيْنِ أيضًا في حَقِّ المـُصْطَفَى-صلى الله عليه وسلم- تَنْضافانِ إلى ما سَبَقَ، ألا وهُمَا: سَعةُ عِلْمِهِ-صلى الله عليه وسلم-، وفَيْضُ كَرَمِهِ عليه السَّلام، فأمَّا:

- **سَعَةُ عِلْمِهِ**-صلى الله عليه وسلم-: فقد جَعَلَ الإمامُ البوصيري مفتاحَ المفاضلةِ في العِلْمِ بين الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الرُّسُلِ والأنبياء في العِلْمِ نَفْيَ الدُّنُوِّ منهُ في العِلْمِ عنهم أو الدَّنَاوة: (لَمْ يُدَانُوهُ)، عِلْمًا بِأَنَّ المذكورَ منهم في القرآنِ الكريمِ خمسةٌ وعشرون نبيًّا ورسولًا، وَرَدَ منهم ثمانية عشر في سورة الأنعام. قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ

[31]- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النَّهْي عن لَعْنِ الدَّواب وغيرها، رقم الحديث: 2599.

[32]- رواه أحمد في مسنده، رقم: 3823، والبيهقي في "شعب الإيمان"، رقم: (8543)، وصححه ابن حبان، رقم: 959.

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 83-86] إضافةً إلى: آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فهؤلاء جميعًا (لم يُدانوه في عِلْمٍ)، فأقرَّ الشَّاعِرُ هذه الحقيقةِ بِنَفْيِ الفعلِ:" دَنَا"، وكأنَّنا به يقتبسُهُ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم،8] المقصودِ به سيِّدنا جِبْرِيلُ–عليه السلام– في قُرْبِه من الرَّسول–صلى الله عليه وسلم–حينَ الوَحْيِ، فهو نَفْيٌ لقُرْبِ الأنبياء–عليهم السَّلامُ أجمعينَ– من مَبْلَغِ عِلْمِ الرَّسولِ–صلى الله عليه وسلم– فبالأحرى المجَارَاة؛ أي مُجاراتهم للنَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم– في مَبْلَغِ عِلْمِهِ وسَعَةِ إدْرَاكِهِ، ومُعْجزتُهُ–بِمَنٍّ من الله وفَضْلِهِ– شاهدةٌ على ذلك، وهي القرآنُ الكريمُ الذي بَلَّغهُ أخْبارَ الأوَّلِينَ والآخرينَ، فهو خاتِمُ الأنبياءِ والمرْسَلِينَ، المبْعوثُ كافَّةً للنَّاسِ أجمعينَ، ويَجْمَعُ ذلكَ كُلَّهُ ما وَصَفَهُ به اللهُ سبحانه في كتابه العزيز. قال تعالى:﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[آل عمران،164]

فالآيةُ الكريمةُ تَنُصُّ على صِفَةِ عِلْمِهِ، وممَّا وَرَدَ في تفسيرِها: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ بأنْ يُبَيِّنَ لهم المقاصدَ الَّتي مِنْ أَجْلِهَا نَزَلَ القرآنُ الكريمُ، ويَشْرَحَ لهم أَحْكَامَهُ، ويُفَسِّرَ لهم ما خَفِيَ عليهم من ألفاظِهِ ومعانيهِ الَّتي قد تَخْفَى على مداركهم. فتعليمُ الكِتَابِ غَيْرُ تلاوته، لأنَّ تلاوتَه قراءتُه مُرَتَّلًا مفهومًا، أمَّا تعليمُه فمعناهُ بيانُ أحكامِهِ وما اشتملَ عليه من تشريعاتٍ وآدابٍ. ويُعَلِّمُهُمْ كذلك الْحِكْمَةَ؛ أي الفِقْهَ في الدِّينِ ومعرفةَ أسرارِهِ وحِكَمِهِ ومقاصدِهِ الَّتي يَكْمُلُ بها العِلْمُ بالكتابِ)[33].

كما أنَّ ممَّا سِيقَ في ذِكْرِ مَوْلِدِهِ الرَّسُولِ–عليه السَّلام–، ما رَوَاهُ الحافظُ أبو بكر بن عائذ– كما نَقَلَهُ عنه الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ الزَّرْكَشِي في شَرْحِ البُرْدَة– عن عبد الله بن عبَّاس– رضي الله عنهما– أنَّهُ قَالَ: (لَمَّا وُلِدَ النَّبِيُّ–صلى الله عليه وسلم– قالَ في أُذنهِ رضوان خازنُ الجِنَانِ: أَبْشِرْ يا محمد، فما بَقِيَ لِنَبِيٍّ عِلْمٌ إلَّا وقد أُعْطِيتَهُ، فأنتَ أكثرُهم عِلْماً، وأشجعُهم قَلْبًا)[34].

والدَّلائلُ على حقيقةِ عِلْمِهِ كثيرةٌ، في مُقَدِّمتها دَلِيلَانِ نَقْلِيان اثنانِ:

---

[33]– طنطاوي محمد سيِّد، التَّفْسِير الوَسِيط للقرآن الكريم– دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1/ 1393هـ–1973م، مج2/ ص:326.

[34]– الزرقاني أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على المواهب اللَّدُنيَّة بالمِنَح المُحَمَّدِيَّة– دار الكتب العلمية، ط 1/ 1417هـ–1996م، الفصل الثاني: فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزَّكِيَّة وشرَّفَه به من الأوصاف المرضيَّة، مج 1/ صص: 216-217.

أوَّلُها- **القرآن الكريم**: معجزةُ المُصطفى-صلى الله عليه وسلم-، الذي أُوحِيَ به إليه من ربِّهِ، وأُقْرِئَهُ بواسطةِ سيِّدِنا جبريل عليه السَّلام، ومُنَّ عليه بالاقتدار على بيانِهِ بحِكْمَتِهِ؛ أي بالسُّنَّةُ المشرَّفة، خاصَّةً وأنَّهُ الكتابُ الحكيمُ الذي تَضَمَّنَ عِلْمَ الأوَّلين والآخِرين، وكُلِّفَ بتبليغِهِ المصطفى الأمين -صلوات الله وسلامه عليه-، مصداقًا لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[النحل،64]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل،89]

ثانيها- **السُّنَّةُ النَّبويَّةُ المُطَهَّرَةُ**: باعتبارها أيضًا مَدَدًا رَبَّانِيًّا، مِصداقًا لقوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء،113]

فالشَّاعرُ البوصيري في سِياقِ مَدْحِهِ للرَّسُولِ المِصْطَفَى-صلى الله عليه وسلم- وتَعْيِينِهِ ما حازَهُ عليه السَّلامُ من الفضائل والكَمَالاتِ اللَّائقةِ بالأنبياء، يُقيمُ المفاضلة بين النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- وبين سائرِ الأنبياءِ عليهم السَّلام، وهـو لم يَخْرُجْ في ذلـك عمَّـا دُرِجَ على إثارتِـهِ في كُتُـبِ الحـديثِ والتَّفْسِيرِ، وكُتُـبِ الـمناقِبِ والشَّـمَائِلِ الـمُحَمَّدِيَّة، غير أنَّه في سياقِ تحليلِ دَلالةِ "الدُّنو" أو الدَّنَاوَةِ يجعلُ الـمُتَلَقِّي يعيشُ إشكاليةَ البَحْـثِ عن الفَرْقِ الكامنِ بينهما في الـمَعْنَى، فَضْلًا عن الاختلافِ الكَامِنِ بين "الدُّنُوّ" وما قد يُرادِفُهُ نحو: "القُرْبُ"، ومشتقاتِ الجِذْرِ:"قَرُبَ"، و"اقْتَرَبَ"، و"قَارَبَ"، عَلَّهُ يُفْلِحُ في التَّمييز فيَخْلُصَ منه للمعنى المقصودِ.

فبـالرُّجوعِ إلى"مُعْجَـمِ الفُـروقِ اللُّغويـة" لأبي هـلالٍ العَسْـكَرِي(ت نحـو:395هـ) نَظْفَـرُ بـالفَرْقِ بـين "الـدُّنُوّ" و"القُرْب"، يقول: (الفَرْقُ بين الدُّنُوِّ والقُرْبِ: أنَّ الدُّنُوَّ لا يكونُ إلَّا في المسافةِ بين شيئين. تقولُ: دارُهُ دانيةٌ ومزارُه دانٍ، والقُرْبُ عَامٌّ في ذلك وفي غيرِه. تقولُ: قلوبُنا تتقاربُ ولا تقولُ: تَتَدَانَى، وتقولُ: هو قريبٌ بقَلْبِهِ ولا يُقالُ: دانٍ بِقَلْبِهِ إلَّا على بُعْدٍ)[35].

أمَّا ابنُ منظورٍ(ت711هـ) في"لِسَانِ العَرَبِ"، فتَجِدُهُ يُعَرِّفُ الفِعْلَ بقَوْلِهِ: (دَنَا الشَّيْءُ مِنَ الشَّيْءِ دُنُوًّا وَدَنَاوَةً: قَرُبَ. وَفِي حَدِيثِ الْإِيمَانِ: ادْنُه؛ هُوَ أَمْرٌ بِالدُّنُوِّ وَالْقُرْبِ، وَالْهَاءُ فِيهِ لِلسَّكْتِ، وَجِيءَ بِهَا لِبَيَانِ الْحَرَكَةِ وَبَيْنَهُمَا دَنَاوَةٌ أَيْ قَرَابَةٌ. وَالدَّنَاوَةُ: الْقَرَابَةُ وَالْقُرْبَى، وَيُقَالُ: مَا تَزْدَادُ مِنَّا إِلَّا قُرْبًا وَدَنَاوَةً)[36].

وعليه، فما بين انتفاءِ تَحَقُّقِ القُرْبِ: قُرْبِ الأنبياءِ من النَّبِيِّ بمُوجِبِ انتفاءِ المجَايلةِ؛ فهو لاحقٌ عن سوابق، وما بين تَعَذُّرِ المقاربةِ في ضَوْءِ انتفاءِ المشاركةِ في عَيْنِ المعجزة: القرآنِ الكريمِ مَصْدَرِ العِلْمِ: عِلْمِ اللَّوْحِ والقَلَمِ، يَجِدُ

---

[35]- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، معجم الفروق اللغوية، تح: بيت الله بيات- مؤسسة النشر الإسلامي، ط1/ 1412هـ، رقم: 922، ص: 236.

[36]- ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب- دار صادر، 2003م، (مادة: دنا)، ج5/ ص:310. يقال: "قاربَ الشَّئ"، بمعنى: دَانَاهُ، واقْتَرَبَ منه. و"قَرُبَ من الشئ": دَنَا منه.

النَّفْيُ: نَفْيُ الدُّنُو/الدَّنَاوَة مُسوِّغَهُ ويَكْتَسِبُ مشروعيتَهُ: شَرْعًا وعَقْلًا: (فلم يُدانوه في عِلْمٍ)، فلا قُرْبَ مِنَ الذَّاتِ والكِيَانِ المحمديِّ فهو لَاحِقٌ عنهم، خلافًا للمُصطفى-صلى الله عليه وسلم- فقد مُنَّ عليه بعِلْمِهِ بهم جميعِهِمْ بالوَحْيِ، فهو خاتمُهم الَّذي أُوتِيَ عُلُومَهُمْ كُلَّها، ولا مُقاربةَ منهم لأسرارِ ومعجزاتِ وأحْكَامِ وتشريعاتِ النَّصِّ القُرْآني، فقد خُصَّ بها المُصْطَفَى الخاتِمِ دُونَهم عليهم السَّلامُ أجمعين.

- **فَيْضُ كَرَمِهِ** عليه السَّلام:

لقد حَازَ الرَّسُولُ-صلى الله عليه وسلم-الكَمالات الخَلْقِيَّة البَشَرِيَّة كُلّها، كما حازَ الكَمالاتِ الخُلُقيَّة البشريَّة، ومِنْ دلائلِ هذه الأخيرة فَيْضُ كَرَمِهِ عليه السَّلامُ، وكَأَنَّنا بالكَرَمِ يَنْسَحِبُ من مفهومِهِ في شِقٍّ منهُ بموجبِ السِّيَاقِ لا بحُكْمِ الواقعِ؛ ليُوَافِقَ كَرَمَ الرَّسُولِ في بَذْلِ العِلْمِ وتَبْليغِهِ ماعَلَّمهُ اللهُ للخلائِقِ، امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة،67]، وهو مَنْ بَلَّغَ الرِّسَالةَ وأَدَّى الأمانةَ-صلواتُ الله وسلامُه عليه. ومِمَّا جاءَ في تفسيرِ هذه الآية الكريمةِ، قولُ ابنِ كَثِير:

(قَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ، وَقَدْ شَهِدَتْ له أُمَّتُهُ بإبلاغِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ بِذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَحَافِلِ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ كان هناكَ من أصحابِهِ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مسؤولون عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إلى السَّماءِ وينكسها إليهم، ويقول: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْت؟)[37].

ولعلَّ مِمَّا قد يُزَكِّي هذا الاعتقادَ في تَوْجِيهِ الكَرَمِ صَوْبَ ما يَتَّصِلُ بالعِلْمِ، بما يُفِيدُ المَدَدَ العِلْمِيَّ، قَوْلُ النَّاظِمُ بَعْدُ:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفًا مِنَ البَحْرِ أو رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

فما من نَبِيٍّ إلَّا وهو مُلْتَمِسٌ مِنْ عِلْمِ رَسُول اللهِ-صلى الله عليه وسلم- مِمَّا مَنَّ به اللهُ تعالى عليه وجاد، والشَّاعِرُ بِحِسِّهِ المرْهَف وعِلْمِهِ بسِيرَةِ المصطفى العَطِرَة، يُقِرُّ حقيقةً أخرى مفادُها التماسُ سائرِ الأنبياءِ هذا المَدَد المَمْنُون بِهِ عليهِ، مِنْ خاتمِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، فلا يَصِلُون منه إلَّا إلى مقدارِ غَرْفَةٍ مِنْ بَحْرِهِ أو رَشْفَةٍ مِنْ غَيْثِهِ الغزيرِ.
ف(كُلُّهُمْ) تُفيد الأنبياءَ على إطلاقِهِمْ بعُنْصُرَيْنِ: "كُلُّ" الاسم الَّذي يُفيدُ معنى الشُّمُولِ والاستغراقِ والتَّمام لأفراد ما يُضاف إليه، والضَّمير المتَّصل به: "هم"، وهو من المعارفِ بل أعرفُها: (فَمُضْمَرٌ أَعْرَفُهَا ثُمَّ

---

[37]- ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3/ ص:137.

العَلَمْ...بيت)، ممَّا يُحِيلُ إلى عُموم الأنبياءِ دونَما حَصْرٍ أوتعْيينٍ لفئةٍ منهم دون أخرى. و(مِنْ رسولِ اللهِ) دلالةٌ على مُنطلَق هذا الالتماسِ وبدايته ومَصْدَرِ الاعْترافِ فيه من المَدَد: الذَّات المُحَمَّدِيَّة، والإضافة: (رَسُول الله) تَحْكُمُ بإفادةِ المَنِّ الرَّبَّانِيِّ، وتُزيحُ اعتقادَ استقلالِ هذه الذَّات المصطفاة عن خالقِها، والمُسْنَدُ في التَّركيبِ أوالبناءِ اللُّغوي اسمُ مفعولٍ وهو الخَبَرُ: "مُلْتَمِسٌ"، المتِمُّ الفائدةِ: فائدةِ إقْرَارِ أَخْذِ الأنبياء بتَلَطُّفٍ عن النَّبِيِّ الخاتمِ-صلى الله عليه وسلم- دونَ إتْيَانِ التَّمَام، والشَّاهد صورتان على سبيل المشَابَهَةِ أوالتَّقريب: الغَرْفُ من البحْر، والرَّشْفُ من الغَيْثِ المُنْسَجِمِ غيرِ المنقطِع، فهو "الدِّيَم"، وليس مُفْرَدها فحسب: الدِّيمَة: المطَرُ الدَّائِمُ دونَ رَعْدٍ أوبَرْقٍ.

وما بين إفرادِ: "البحر" وجَمْعِ: "الدِّيَم" يَنْشَأُ الاستفهامُ عن عِلَّةِ الاختلافِ، ففي اعتمادِ صيغةِ الإفرادِ توحيدٌ لِمَنْبَعِ الاستمدادِ، وفي توظيفِ صيغةِ الجَمْعِ تعبيرٌ عن الغِنَى والزِّيادةِ والاستدامةِ، بله الاستمرار والدَّيمومة فيما يَخُصُّ المدَدَ.

وفي تفسيرِ "تَيْسِيرِ الكَرِيمِ الرَّحْمنِ في تَفْسِيرِ كَلامِ المنَّانِ" تَحْدِيدٌ لمواضيعِ التَّبْلِيغِ، وبَيَانٌ لِمَنْهَجِهِ، وإشْهَادٌ بتَحَقُّقِهِ. يَقُول: (هذا أَمْرٌ مِنَ اللهِ لرسولِه محمد-صلى الله عليه وسلم- بأَعْظَمِ الأوامرِ وأَجَلِّهَا، وهو التَّبليغُ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ إليه، ويَدْخُلُ في هذا كُلُّ أَمْرٍ تَلَقَّتْهُ الأُمَّةُ عنه-صلى الله عليه وسلم- مِنَ العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ، والأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ والمطالبِ الإلهيةِ. فبلَّغَ-صلى الله عليه وسلم- أَكْمَلَ تبليغٍ، ودَعَا وأَنْذَرَ، وبَشَّرَ ويَسَّرَ، وعَلَّمَ الجُهَّالَ الأُمِّيِّينَ حتَّى صَارُوا مِنَ العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيينَ، وبَلَّغَ بِقَوْلِهِ وفِعْلِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ. فَلَمْ يَبْقَ خَيْرٌ إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عليه، ولا شَرٌّ إِلَّا حَذَّرَهَا عنه، وشَهِدَ له بالتَّبليغِ أفاضلُ الأُمَّةِ من الصَّحابةِ، فمَنْ بَعْدَهُمْ من أئمَّةِ الدِّينِ ورجالِ المُسلمينَ)[38].

فالرَّسول-صلى الله عليه وسلم- هو مَنْ مثَّلَ اللَّبِنَةَ المُكَمِّلَةَ الخاتمةَ لبناء العقيدةِ الإلهيةِ والتَّشريعِ الرَّبَّاني، ولهذا أخذَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- ميثاقًا على الأنبياءِ وعَهْدًا عليهم جميعِهم هو الإيمانُ به والتَّصديق له، مصداقًا لقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران،81]

وممَّا جاءَ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ قولُ الحافظِ ابنِ كثير: (فالرَّسولُ مُحَمَّدٌ خاتمُ الأنبياءِ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه دائمًا إلى يومِ الدِّينِ، هو الإمامُ الأعظمُ الذي لو وُجِدَ في أيِّ عَصْرٍ وُجِدَ لكانَ هو الواجبَ الطَّاعةِ، المُقَدَّم على الأنبياءِ كُلِّهِمْ، ولهذا كانَ إمَامَهُمْ ليلةَ الإسراءِ لَمَّا اجتمعُوا ببَيْتِ المَقْدِسِ، وكذلك هو الشَّفيعُ في يومِ الحَشْرِ

[38]- تفسير السعدي- مرجع سابق، ج1/ ص: 239.

في إتيانِ الرَّبِّ لِفَصْلِ القضاءِ، وهو المقامُ المحمودُ الَّذي لا يليقُ إلَّا لَهُ ، والذي يَحِيدُ عنهُ أُولُو العَزْمِ من الأنبياءِ والمرْسَلينَ، حتَّى تنتهيَ النَّوْبَةُ إليه، فيكونَ هو المخصوصُ به)[39].

فهذه الآيةُ الكريمةُ إذًا هي من أعظمِ الدَّلائلِ على عُلُوِّ مَرْتَبَةِ الرَّسُولِ-صلى الله عليه وسلم- وجلالةِ قَدْرِهِ عند بَارِئِهِ، مِمَّا خَوَّلَهُ هذه المكانةَ عند الأنبياءِ كلِّهم-عليهم السَّلام-، ولهذا تجدُ الإمامَ البُوصيري في هذا الفَصْلِ مِنَ البُرْدَةِ- في إطارِ تَنْصِيصِهِ على طبيعةِ هذه العلاقَةِ القائمةِ بين الرَّسولِ وبين الأنبياءِ-عليهم السَّلام أجمعين- يُشِيرُ إلى ما خُوِّلَهُ المُصْطَفَى- صلى الله عليه وسلم- من الدَّرَجةِ الرَّفِيعةِ في العِلْمِ، والْتِمَاس الأنبياء الغَرْفَ من بَحْرِ عِلْمِهِ (غَرْفًا من البَحْرِ) والرَّشْف من فَيْضِ كَرَمِه (رَشْفًا من الدِّيَمِ)، وعناصرُ العلاقةِ الإسناديةِ في التَّرْكِيبِ تَقِفُ شَاهِدًا على ذلك، فـ:

– **المُسْنَد إليه**: هو "كُلُّهم"؛ أي كُلّ الأنبياء دونما استثناءٍ أوحَصْرٍ أوتعْيِين، أَخْذًا بِعَيْنِ الاعتبارِ ما تُفيدُهُ "كُلّ" من استغراقٍ وشُمولٍ-كما سَبَقَ الذِّكْرُ-، خِلافَ لَفْظِ: "جميع" الذي قد يُحِيلُ إلى الدَّلالةِ على الغالبيةِ فحسب، فـ"كُلّ" تُفِيدُ وقوعَ الحُكْمِ الّذي تُطْلِقُهُ على الاسم الّذي يَلِيهَا وقوعاً تامًّا، وهو في هذا السِّيَاقِ الضمير: "هم"، ممَّا يفيدُ: كُلَّ الأنبياء؛

– **المُسْنَد**: "مُلْتَمِسٌ"، وهو مَا يُقَرِّرُ حقيقةَ الالتماسِ بصيغةِ: اسمِ الفاعلِ، رغم أنَّها قد تدلُّ على مختلف الأزمنةِ دونَ حَصْرٍ، وهو ما جَعَلَ الكوفيين ينصرفون إلى تسميتِها بـ"الفِعْلِ الدَّائِمِ"، هذه الصيغة التي قد تَدُلُّ أيضا على الاستمرارِ في الزَّمَن، غير أنَّ القَصْدَ في هذا السِّياقِ لا محالةَ مُنْصَرِفٌ للزَّمَنِ المُستقبل، خاصَّة وأنَّ مَسْأَلَتَيْ خَتْم الرِّسالةِ أوالرِّسالةِ الخاتِمةِ فَضْلًا عن الميثاقِ الرَّبَّاني الذي أخَذَهُ اللهُ -عَزَّ وجَلَّ- على الأنبياء في الآيةِ الكريمةِ السَّابقةِ، شاهدانِ على هذه الحقيقةِ المحمَّديَّةِ في المفاضلةِ بين الأنبياءِ، دونَ إزراءٍ أوانتقاصٍ من قَدْرِهِم-عليهم السَّلام، خاصَّةً وأنَّ لَنَا في لفظِ المسْنَدِ أيضًا: "مُلْتَمِسٌ"، ما يُزَكِّي ذلك إذا ما وَقَفْنَا على الفَرْقِ الماثلِ بين مفاهيمِ هذه المفْرَدَات، أوبالأحْرَى مقاماتِ توظيفها؛ أي توظيفِ معنى الالتماسِ في مقابلِ الأَمْرِ أوالدُّعاءِ، فمعلومٌ في منطِقِ العربيةِ وحُكْمِ عُلَماء البَلاغةِ أنَّ:

- **الالتماسَ** من بابِ الإنشاءِ الطَّلَبِي الذي يسْتَدْعِي مَطْلُوبًا غَيْرَ حاصلٍ وَقْتَ الطَّلَبِ، على أساسِ أنَّه من الأَمْرِ الذي يُفِيدُ الاسْتِعْلاءَ والفَوْرِيَّة، غير أنَّه يَخْرُجُ عن المعْنَى الأصْلِيِّ للأَمْرِ، وهو ما يُسْتَفَادُ من سِيَاقِ الكَلامِ؛

---

[39]- تفسير ابن كثير- مصدر سابق، ج2/ ص: 68-69.

- **الالتماسَ** يكون من المُساوي إلى المُساوي؛ بمعنى من يُماثُله في القَدْرِ والقِيمَة، أو الرُّتْبَةِ والمَنْزِلَة، أمَّا **الأمرُ**: فيكون من الأَعْلَى إلى الأدْنَى، **والدُّعاءُ**: يُتَوَجَّهُ فيهِ من الأدْنَى إلى الأعْلَى. يقولُ النَّاظمُ الأَخْضَرِي عبدُ الرَّحمنِ بن سيدي محمد الصَّغير(ت953هـ):

أمرٌ مَعَ اسْتِعْلَا وعَكْسُهُ دُعَا ** وفي التَّسَاوِي فالتماسٌ وَقَعَا[40]

وبهذا فالشَّاعِرُ البُوصِيري، وهو اللُّغوي المحنَّك، بتوظيفهِ لمِعْنَى **الالتماسِ** في صيغةِ **اسمِ الفاعلِ** دَلَّ على مَعْنَيَيْنِ:

- التَّنصيص على استمدادِ الأنبياءِ من المعِينِ المحمَّدي من بابِ الطَّلَبِ، إنَّما ليس بمُقْتَضَى الاسْتِعْلاءِ والفَوْرِيَةِ اللَّتَيْنِ يُفيدُهما الأمْرُ، ولكن بِفِعْلِ الطَّلَبِ من المسَاوِي إلى المسَاوِي مع عَدَمِ اقتضاءِ الفَوْرِ؛
- التَّأكيد في الآنِ ذاتِهِ على خَيْرِيَّةِ الأنبياءِ كُلِّهِمْ القائمةِ على المساواةِ في مقامِ النُّبُوَّةِ، وهم المأمورون من اللهِ –عَزَّ وجَلَّ– بِتَبْليغِ رِسالتهم، والدَّاعونَ اللهَ سبحانَه، ومنه ما وَرَدَ في الصَّحِيحَيْنِ أنَّ الرَّسولَ–صلى الله عليه وسلم– كانَ يَدْعُو به، فعن أنس–رضي الله عنه– قال: كانَ أَكْثَر دعوةٍ يَدْعُو بها النَّبِيُّ–صلى الله عليه وسلم– يقول: "اللَّهُمَّ آتِنا في الدُّنْيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ"[41].

ثمَّ ما نَلْبَثُ أنْ نَقِفَ أيضًا على ما يَقَعُ عليه اسمُ الفاعلِ: "مُلْتَمِسٌ" في هذا البيتِ من البُرْدَة: (وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ...بيت)، باعتبارِهِ مفعولَهُ، وهو: "غَرْفًا"، الذي يُفِيدُ لغةً غَرْف الماءِ باليَدِ مِلْءَ الكَفِّ، ويَدُلُّ مَعْنًى على نِسْبَة ما يعْرِفُ الأنبياءُ من بَحْرِ عِلْمِ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم–، ويُحِيلُ دَلالةً إلى حقيقة نَهْلِ الأنبياء–عليهم السَّلام– من عِلْمِ المصْطَفَى–صلى الله عليه وسلم–، وذلك لا يَعْدو الغَرْفَ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ– سبحانهُ وتعالَى– إيَّاهُ عن طريقِ الوَحْي بواسطةِ سَيِّدِنَا جبريل–عليهِ السَّلام–، وما مُنَّ بهِ عليهِ مِنْ حِكمةٍ؛ وهي السُّنَّةُ المشرَّفَةُ التي تُمَثِّلُ التَّطْبيقَ العَمَلِيَّ لِما أُمِرَ به–صلى الله عليه وسلم– من تبليغٍ وبيانٍ.

وفضلًا عَمَّا سَبَقَ، فمَعْنَى الالتماسِ الَّتي تُفيدُه صيغةُ: "مُلْتَمِسٌ" وكذا موضوعُهُ في هذا السِّيَاقِ، يتَّضِحُ من خلالِه استعارةٌ تصريحيةٌ؛ حيث شُبِّهَ عِلْمُ النَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم– بالبَحْرِ في الكَثْرَةِ والوَفْرَةِ وعَدَمِ الاختلاطِ بشيءٍ قليلٍ، ثُمَّ استُعير البحرُ لِعِلْمِهِ– وقِيلَ لخُلُقِهِ– عليه السلام، فذُكِرَ البَحْرُ وأُريدَ منه عِلْمُهُ أو أخلاقُه عليه السلام، وهما سَيَّانِ من حيثُ الفَضْلِ، وإثباتُ الغَرْفِ ترشيحٌ لذلك.

---

[40]– الأخضري عبد الرحمن، السُلَّم المُرَوْنَق في عِلْمِ المنطق– ملتقى أهل اللغة لعلوم اللغة العربية، فصل في نسبة الألفاظ للمعاني، ص10.

[41]– صحيح البخاري، كتاب الدَّعَوات، باب قول النبي–صلى الله عليه وسلم– ربنا آتنا في الدنيا حسنة، رقم الحديث:6026.

وفي السِّياقِ السَّابِقِ نَفْسِهِ يَدْخُلُ قَوْلُ النَّاظِمِ:

وواقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِـــــمُ   مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أو مِنْ شَكْلَةِ الحِكَـمِ

وذلك في إطارِ تأكيدِ حقيقةِ العلاقةِ بين الرَّسولِ-صلى الله عليه وسلم- وسائرِ الأنبياءِ من حيث استمدادُهم العِلْمَ منه، فحدُّهُم فيه هو كنُقْطَةِ حَرْفٍ من عِلْمِهِ، أو كشَكْلَة من حِكَمِهِ.

والحقُّ أنَّ تشبيهَ عِلْمِ الأنبياءِ بذلك قِيَاسًا بعِلْمِ النَّبِيِّ-صلى الله عليه وسلم- بما فيهِ من استعارةٍ تَصْريحيةٍ أصليَّةٍ، قد يَجِدُ مُسَوِّغَهُ الشَّرْعِيَّ والمَنْطِقِيَّ في كَوْنِ عِلْمِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم- هو الجامعُ الخاتمُ، بحُكْمِ الرِّسالةِ الخاتمةِ، واعْتِبَارًا لِقيمةِ القرآنِ الكريمِ مُعْجِزَتِهِ عليه السَّلام، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تعالى:﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل،89]، وقوله سُبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة،48]

فكلتا الآيتين الكَريمتين تَقِفان دَليلا على مَنْزِلَةِ الرَّسولِ-صلى الله عليه وسلم- ورسالتِه السَّماويةِ المُوَجَّهَةِ إلى النَّاسِ كافَّةً، حيث لم تُخَصَّصْ لِقَوْمٍ مُعَيَّنين كما في الرِّسالاتِ السَّابقةِ، وفَضْلًا عن ذلك فالقرآنُ الكريمُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شيءٍ مِمَّا يُحَاطُ بِعِلْمِه ومالايُحاط، وهو —كما فُسِّرَ- أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على الكُتُبِ السَّماويةِ السَّابقةِ، فما وافَقَهُ منها فهو حَقٌّ، وما خالَفَهُ منها فهو باطِلٌ. وبهذا الاعتبارِ قد يَجِدُ مفهومُ الالتماسِ: التماس سائر الأنبياء من الرَّسولِ-صلى الله عليه وسلم- العِلْم دَلِيلَهُ الشَّرْعِيَّ والمنطقيَّ، فالقُرْآنُ الكريمُ خاتِمَةُ الرِّسالاتِ السَّماويةِ، فهو البُرْهانُ من الله -عزَّ وجلَّ-، وهو النُّورُ المُبِينُ، مِصْدَاقًا لقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[النساء،174]، وفي هذا السِّيَاقِ يُمْكِنُ أنْ نستشهدَ أيضًا بما جاءَ في تفسيرِ ابنِ كثير لقولِه تعالى في حَقِّ الكتابِ العزيزِ: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[المائدة، 48]: (قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ مُؤْتَمَنًا عَلَيْهِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابنِ عباس: الْمُهَيْمِنُ الْأَمِينُ، قَالَ: الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ كتابٍ قَبْلَهُ...، وَقَالَ ابْنُ جرير: القرآنُ أمينٌ على الكُتُبِ المتقدِّمةِ قَبْلَهُ، فَمَا وَافَقَهُ مِنْهَا فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعَنِ الْوَالِبِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "وَمُهَيْمِناً"؛ أَيْ: شَهِيدًا، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ. وَقَالَ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "وَمُهَيْمِناً"؛ أَيْ: حَاكِمًا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَارِبَةُ الْمَعْنَى، فَإِنَّ اسْمَ الْمُهَيْمِنِ يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ، **فَهُوَ أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ**، جَعَلَ اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الكُتُبِ وخاتمها وأشملَها وأعظمَها وأكملَها؛ حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، فَلِهَذَا جَعَلَهُ

شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا، وَتَكَفَّلَ تَعَالَى بِحِفْظِهِ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الْحِجْرَ: 9])[42].

فعديدةٌ هِيَ الأوصافُ الَّتِي وَرَدَتْ للقرآن والَّتِي تَدُلُّ على قِيمَتِهِ وفَضْلِهِ، ومن ثمَّ قيمةِ ما بُلِّغَ به الرَّسُولُ-صلى الله عليه وسلم- وأُمِرَ بتبليغهِ، ويَدْخُلُ في ذلك حقيقةُ التماسِ الأنبياءِ منه العِلْمَ الَّتِي دَلَّ عليها الشاعرُ البوصيري.

ولنا في توظيفِ الشَّاعرِ البوصيري عبارة: "واقفون" في سياقِ ضَبْطِهِ طبيعةَ هذه العلاقة بين الرَّسُولِ-صلى الله عليه وسلم- والأنبياءِ في سياقِ الالتماسِ عبرةٌ لغويةٌ وحكمةٌ دلاليةٌ أيضا، فمعلومٌ أنَّ الوقوفَ مِمَّا قد يُفِيدُهُ من حيثُ معناهُ اللُّغوي: الانتظارَ، فهم واقفونَ، ووُقْفٌ، ووُقُوف لَدَيْهِ، غيرَ أنَّ التَّقييدَ بعدُ بـ: "عند حَدِّهِم"؛ قد يُفيدُ أنَّهم وَقَفُوا عند ما هو مرسومٌ لهم من قِبَلِ المولى-عَزَّ وجَلَّ- وتقيَّدوا به، خاصَّةً وقرينةُ الميثاقِ الذي المأخوذِ عليهم من قِبَلِ المولَى سُبْحَانَهُ ثابتةٌ بالدَّلِيلِ القرآني السابق الذِّكْرِ.

وبُجْمَلُ القَولِ، فالإمامُ البوصيري لم يَجْنَحْ في مَدْحِهِ المصطفى-صلى الله عليه وسلم- إلى عاطِفَتِهِ فحسب دونما سَنَدٍ نَقْلِيٍّ أو عَقْلِيٍّ أو هما معًا، ممَّا كانَ يمكنُ عَدُّهُ من بابِ التَّعَصُّبِ غَيْرِ القائمِ على يقينٍ، وإنَّما نَجِدُ لِمُخْتَلِفِ ما حَاوَلْنَا مُقارَبَتَهُ من المواضيعِ التي أثارَها واتَّخذَها عِمادَ مَدْحِهِ للرَّسُولِ الخاتمِ، أو الَّتي جعَل منها أساسَ المفاضلةِ بينه وبين الرُّسُلِ والأنبياء-عليهم السَّلام-، دَلِيلَهُ بل أَدِلَّتَهُ في نَصِّ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ المشرَّفَةِ، فضلًا عن شَرْحِهِ وتَعْلِيلِهِ في التَّفاسيرِ وغيرِها من مضانِّ الشَّرْعِ وعُلومه.

ثمَّ إنَّ اللُّغَةَ مَثَّلَتْ على الدَّوامِ مَعْبَرًا للمعاني وسبيلًا للأغراضِ في الكلامِ عمومًا والكلامِ الشِّعْرِيِّ أيضًا، خاصةً وهو الذي يَخْتَزِلُ طاقةً إحساسيةً وشعورِيَّةً خاصَّة، بل لا يُمْكِنُهُ أنْ يَصْدُرَ إلَّا عن طاقةٍ عاطفيةٍ جياشةٍ: إيجابية كانت أوسلبية، مُعبِّرة عن فَرَحٍ أو حُزْنٍ، حُبٍّ أونقيضِه...، وقصيدة البُرْدَة لم تخرجْ عن هذا المنْحَى فجاء حُبُّ المصطفى-صلى الله عليه وسلم- فيها متجسِّدًا: تذكُّرا وذِكْرًا(مفتتَحُ القصيدة وسائرها)، وتعزيزًا وتَقْدِيراً (سَيِّدُ/ السُّؤْدَد..)، وتقديمًا وتَصْدِيقاً(الآمِرُ النَّاهي..)، واعتبارًا ومَحَبَّةً(الحبيبُ الشَّافع المشفّع..)، واقتداءً واتِّباعًا (مُسْتَمْسَكٌ به..)، وتفضيلًا ونُصْرَةً (تفوُّق على الأنبياء: خَلْقًا وخُلُقًا وعِلْمًا وكَرَمًا..)...، فجاءت بذلك دليلًا على المَحَبَّةِ المحَمَّدِيَّة، وذلك ما ساهمَ في تَجَلِّيهِ بناؤُهَا اللغويُّ الرَّصينُ: إفْرَادًا وتَرْكِيبًا، هذا البناءُ الَّذي مَثَّلَ بِدَوْرِهِ جِسْرًا مُفْضِيًا لأبعادِها الدَّلَالِيَّة بمَرْجِعِياتِها المختلفة...

ولَعَلَّ خَيْرَ ما نختمُ به هذه المقاربة اللُّغوية لبعضِ مَتْنِ البُرْدَة، ما انتهى إليه القاضي عِيَاض بن موسى اليَحْصبيّ(ت544هـ) في فريدته "الشِّفَا بتعريفِ حُقوقِ المصطفى" حيثُ جَمَّعَ ما يزيدُ عن خمسين فضيلة من

42- تفسير ابن كثير- مصدر سابق، 128/3

الفضائلِ المحمَّدِيَّةِ، أو ما اصْطُلِحَ على نَعْتِهِ بـ"الخِصَال": بدْءًا بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وانْتِهاءً بالعِصْمَةِ من النَّاسِ في الحياة الدُّنْيَا، وما أُعِدَّ لهُ في الدَّارِ الآخرةِ من مَنازل. يقولُ: (فَمَا ظَنُّكَ بِعَظِيمٍ قَدْرٍ مَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ كُلُّ هَذِهِ الْخِصَالِ إِلَى مَا لَا يَأْخُذُهُ عَدٌّ وَلَا يُعَبِّرُ عَنْهُ مَقَالٌ، وَلَا يُنَالُ بِكَسْبٍ وَلَا حِيلَةٍ إِلَّا بِتَخْصِيصِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، مِنْ فَضِيلَةِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَالْخُلَّةِ وَالْمَحبَّةِ، وَالاصْطِفَاءِ، وَالْإِسْرَاءِ، وَالرُّؤْيَةِ، وَالْقُرْبِ وَالدُّنُوِّ، وَالْوَحْيِ، وَالشَّفَاعَةِ وَالْوَسِيلَةِ، وَالْفَضِيلَةِ وَالدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالْبُرَاقِ وَالْمِعْرَاجِ، وَالْبَعْثِ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، وَالصَّلَاةِ ، وَالشَّهَادَةِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ، وَسِيَادَةِ وَلَدِ آدَمَ، وَلِوَاءِ الْحَمْدِ، وَالْبِشَارَةِ، وَالنِّذَارَةِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ وَالطَّاعَةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْهِدَايَةِ، وَرَحْمَةٍ لِلْعَالَمِينَ، وَإِعْطَاءِ الرِّضَى والسُّؤْلِ، وَالْكَوْثَرِ، وَسَمَاعِ الْقَوْلِ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ وَالْعَفْوِ عَمَّا تَقَدَّمَ وَتَأَخَّرَ، وَشَرْحِ الصَّدْرِ، وَوَضْعِ الإِصْرِ وَرَفْعِ الذِّكْرِ وَعِزَّةِ النَّصْرِ وَنُزُولِ السَّكِينَةِ وَالتَّأْيِيدِ بِالْمَلَائِكَةِ، وإِيتاءِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، والسَّبْعِ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَتَزْكِيَهِ الْأُمَّةِ، والدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ، وَصَلَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْمَلَائِكَةِ، وَالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ، وَوَضْعِ الْإِصْرِ وَالْأَغْلَالِ عَنْهُمْ، وَالْقَسَمِ بِاسْمِهِ، وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ، وَتَكْلِيمِ الْجَمَادَاتِ وَالْعُجْمِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِسْمَاعِ الصُّمِّ، وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَتَكْثِيرِ الْقَلِيلِ، وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَرَدِّ الشَّمْسِ، وَقَلْبِ الْأَعْيَانِ، وَالنَّصْرِ بِالرُّعْبِ، وَالاطِّلَاعِ عَلَى الْغَيْبِ، وَظِلِّ الْغَمَامِ، وَتَسْبِيحِ الْحَصَى، وَإِبْرَاءِ الآلامِ، وَالعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ... إلى مالا يَحْوِيهِ مُحْتَفِلٌ وَلَا يُحِيطُ بِعِلْمِهِ إِلَّا ما نحه ذَلِكَ وَمُفَضِّلُهُ بِهِ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِلَى مَا أَعَدَّ لَهُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ مِنْ مَنَازِلِ الْكَرَامَةِ، وَدَرَجَاتِ الْقُدْسِ، وَمَرَاتِبِ السَّعَادَةِ، وَالْحُسْنَى، وَالزِّيَادَةِ التي تَقِفُ دُونَهَا الْعُقُولُ، وَيَحَارُ دُونَ إِدْرَاكِهَا الْوَهْمُ)[43].

فكُلُّ ذلك وغيرُه من فضائلِ المُصْطَفَى -صلى الله عليه وسلم- وشمائلِه ومناقبِه، ممَّا دَلَّ عليه القرآنُ الكريمُ وتَجَلَّى من خلالِ السِّيرَةِ الشَّرِيفةِ والسُّنَّةِ العَطِرَةِ، هو مَا شَكَّلَ نواةَ المَدْحِ النَّبَوِيِّ عند الإمامِ البُوصيري وغيرِه من أقطابِ هذا المَسَارِ، فجعلُوا من سليقتِهم الشِّعريةِ ومن اللُّغةِ بناءً حاملًا لِمَعْنَى الحُبِّ الجامعِ الذي أساسُهُ تصديقٌ، وجَوْهَرُهُ إخلاصٌ، وحَقِيقَتُهُ اتِّباعٌ.

والله الموفِّق وهو الهادِي إلى سواءِ السَّبيلِ.

43- القاضي عياض بن موسى اليحصبي(ت544هـ)، الشِّفَا بتعريفِ حقوق المصطفى- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1409هـ-1988م، ج1/ ص: 56-57.

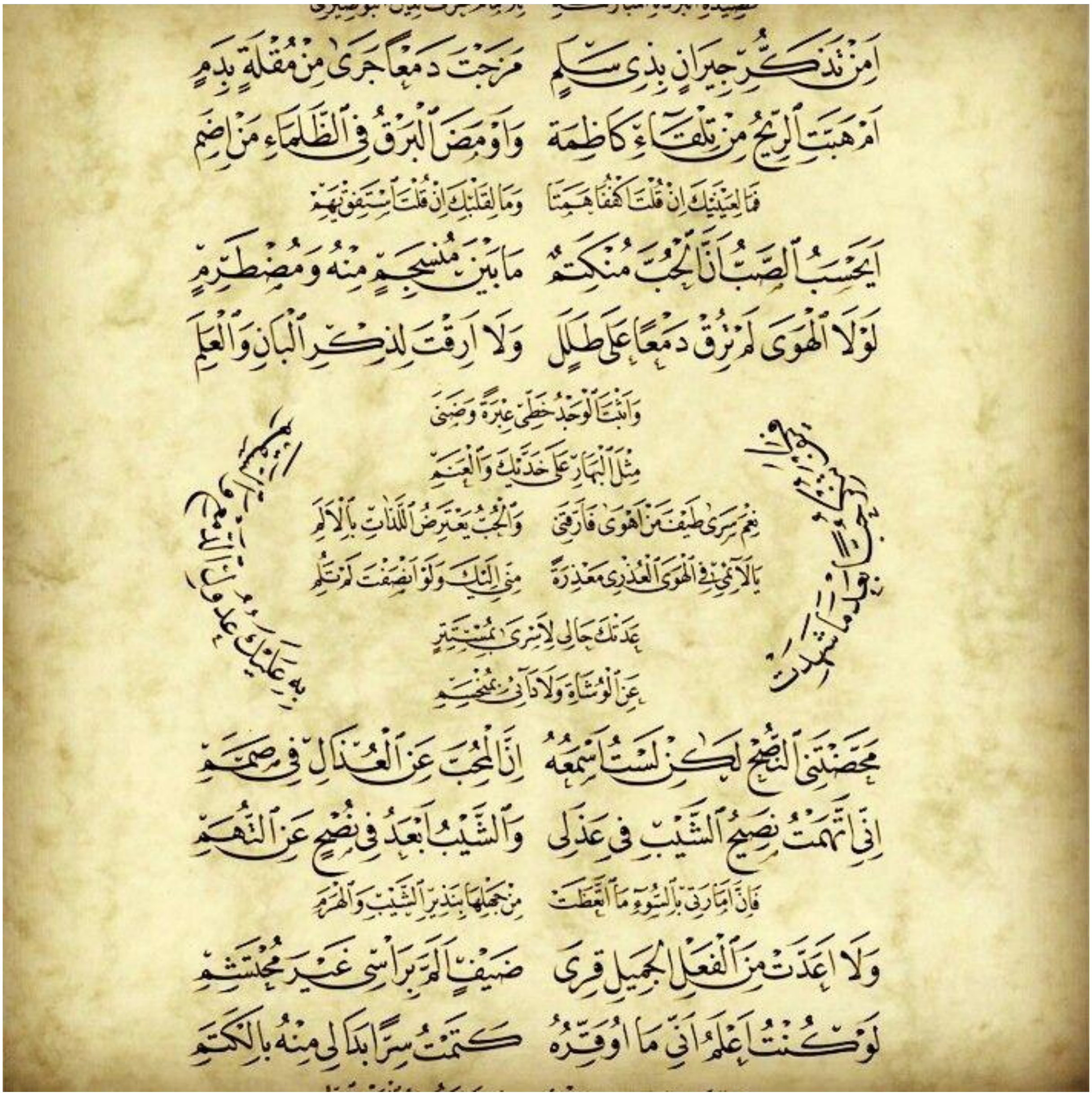
أمن تذكر جيران بذي سلم — مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة — وأومض البرق في الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا — وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم — ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل — ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت — به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطي عبرة وضنى — مثل البهار على خديك والعنم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقني — والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمي في الهوى العذري معذرة — مني إليك ولو أنصفت لم تلم
عدتك حالي لا سري بمستتر — عن الوشاة ولا دائي بمنحسم
محضتني النصح لكن لست أسمعه — إن المحب عن العذال في صمم
إني اتهمت نصيح الشيب في عذلي — والشيب أبعد في نصح عن التهم
فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت — من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى — ضيف ألم برأسي غير محتشم
لو كنت أعلم أني ما أوقره — كتمت سرا بدا لي منه بالكتم